الفصل الخامس

إغراق الحجاج في سياسة القمع

obeikandl.com

obeikandl.com

إغراق الحجاج في سياسة القمع والقتل

الحجاج والأسرى

أما إن الحجاج قد أغرق في التقتيل والقمع فهذا ما لا ريب فيه ولا شك، وأما أن عبد الملك بن مروان قد أطلق يده في ذلك، فهذا ما يزال مدارا لكثير من البحث والتأويل.

لقد كان الحجاج يكره العراقيين، ولا يثق بأحد منهم، وكان يذكر فيما يذكره من أمورهم كيف أنهم لم يتركوا له فرصة للاستمتاع بأمجاد الولاية التي غمرت المشرق من أدناه إلى أقصاه، فما يكاد ينتهي من ثورة حتى يعلق في ثورة، وما يكاد يغمد سيفه من حرب، حتى يعود إلى سله لحرب ثانية، وقد ظهرت نقمته هذه على العراقيين وشدته على المعارضين في ثورة ابن الأشعث ظهورا تاما، وقد ذكرنا في فصل سابق كيف أسلم الحجاج للقتل أحد عشر ألفا من العراقيين يوم الزاوية بعد أن أمنهم، ولعل سبب ذلك، أنه يخشى ثورتهم عليه مرة ثانية، ولكن هذا لا يدفع عن الحجاج ما لحق به من نكث الوعد وخيانة العهد...

ومن أعمال الحجاج بعد معركة (دير الجماجم) ما لا يتفق في قليل ولا كثير مع أسرى الحروب، ومنكوبي الزحوف والمعارك، فقد جلس الحجاج بعد المعركة في الكوفة يبايع الناس، وكان لا يبايع أحدا إلا قال له:

- أشهد إنك كفرت.

فإن قال نعم، بايعه وإلا قتله، فأتاه رجل من ضغم كان معتزلا للناس جميعا فسأله عن حاله، فأخبره باعتزاله، فقال له:

- أنت متربص، أتشهد أنك كافر.

فقال له: بئس الرجل أنا، أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر.

فقال الحجاج: إذا أقتلك...

قال: وإن قتلتني.

فقتله. ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه.

وآتى بآخر من بعده، فقال له الحجاج:

- أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر.

فقال له الرجل: أتخادعني عن نفسي، وأنا أكفر أهل الأرض وأكثر من فرعون ... فضحك منه وخلى سبيله..

وجيء إلى الحجاج بأحد الفرس الذين أيدوا ابن الأشعث وحاربوا معه، وكان كثير الغنى وافر الثروة، فقال له الحجاج:

-أبا عثمان، ما أخرجك مع هؤلاء، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم.

فقال: فتنة عمت الناس. قال: أكتب لي أموالك..

فقال: وأنا أمن على دمي.

قال: والله لتؤدينها ثم لأقتلنك.

قال: والله لا يجمع بين دمي ومالي.

وسيق الشعبي فقيه أهل العراق إلى الحجاج وكان مع ابن الأشعث فقال له:

- أيها الأمير أن الناس قد أمروني اعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليكم وحرضنا وجهدنا، فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا.

فقال الحجاج: أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي..

ويروى أن الحجاج جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقام رجل منهم فقال:

- «أصلح الله الأمير إن لي عليك حقا».

قال: وما حقك؟

قال: سبك عبد الرحمن يوما فرددت عليه.

قال: «من يعلم ذاك»؟

قال: أنشد الله رجلا سمع ذاك إلا شهد به.

فقام رجل من الأسرى فقال: «قد كان ذاك أيها الأمير».

قال: «خلوا عنه» ثم قال للشاهد:

- «فما منعك أن تنكر كما أنكر؟»

قال: لقديم بغضي إياك! قال: ويخلي عنه لصدقه.

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: والله إني لأبغضكم.

فقال له الخارجي «ادخل الله أشدنا بغضا لصاحبه الجنة».

وأتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعلت تنظر غليه وكان يزيد بن أبي مسلم يرى رأي الخوارج ويكتم ذاك. فأقبل على المرأة فقال:

- انظري إلى الأمير.

فقالت: لا أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

فكلمها الحجاج وهي كالساهية، فقال لها يزيد:

- اسمعي ويلك من الأمير.

فقالت: بل الويل لك أيها الكافر الردي.

والردى عند الخوارج الذي يرى رأيهم ويظهر خلافه رغبة في الدنيا.

بين عبد الملك والحجاج

قال علي بن عبد الله: سايرت يوما عبد الملك، فما حاورنا ألا يسيرا حتى لقيه الحجاج قادما عليه، فلما رآه ترجل ومشى بين يديه. فخب عبد الملك فأسرع الحجاج، فزاد عبد الملك فهرول الحجاج. فقلت لعبد الملك: أبك موجدة على هذا! فقال: لا ، ولكنه رفع من نفسه فأحببت أغض منه.

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عزرو العتكي. فلما أثنت الوفود على الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر، قال زياد بن عمرو:

- يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم.

فلم يكن أحد بعد أخف على قلب الحجاج منه.

ويروى عن ابن ميره أنه قال:

- أنا لنتغدى معه يوما – مع الحجاج – إذا جاء رجل من سليم برجل يقوده فقال:

- أصلح الله الأمير، أن هذا الرجل عاص.

فقال له الرجل: أنشدك الله أيها الأمير في دمي، فوالله ما قبضت ديوانا قط، ولا شهدت عسكرا، وإني لحائك.

فقال: أضربوا عنقه.

فلما أحس بالسيف سجد، فلحقه السيف وهو ساجد، فأمسكنا عن الطعام. فأقبل علينا الحجاج فقال:

- ما لي أراكم صفرت أيديكم وأصفرت وجوهكم وحد نظركم من قتل رجل واحد، أن العاصي، يجمع خلالا: يخل بمركزكم ويعصي أميره، ويغر المسلمين وهو أجير لهم، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل، والوالي مخير فيه، إن شاء قتل، وإن شاء عفا.

بناء واسط

ولقد اشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة ابن الأشعث، وأخذ يخشى غوائلهم عليه، بعد أن قتل كبارهم، ومزق أوساطهم، وأدمى قلوبهم، فرأى أن يعمد إلى بناء مدينة خاصة له، يقيم فيها مع جند الشام، خصوصا بعد أن أخذت تكثر الحوادث بين بعض الجنود الشامية وبعض العراقيين.

ويقول ياقوت أن الحجاج فكر في بناء مدينة واسط بين سنة ٨٣ وسنة٨٦ للهجرة، وأنه بعث بعض الأطباء يفحصون له أفضل مكان في العراق لبناء مدينته الجديدة، فاختاروا له واسط لطيب مائها واعتدال إقليمها.

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن اختيار واسط كان لأغراض عسكرية إدارية، وبوقوعها بين البصرة والكوفة في مكان متوسط بينهما، بحيث تسيطر على العراق كل السيطرة وتقوم في الجهة الجنوبية من نهر دجلة.

وقد أسرف الحجاج في البذخ على بناء مدينته هذه، فصرف على القصر والمسجد والجدران الخارجية ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مليونا من الدراهم. ويذكر لنا (ياقوت) أن كاتب الحجاج انتقد عليه إسرافه وأشار إلى أن عبد الملك بن مروان قد ينكر عليه إسرافه هذا، فأشار عليه الحجاج أن يذكر في قيوده مبلغ تسعة ملايين درهم لبناء المدينة، و٤٣ مليونا لمصارفات الحروب.

ولم يسمح الحجاج لغير السوريين من جنده وبعض الأجانب من غير العرب من سكان بخارى وما راء النهر وغيرهم من أسرى الحروب بالسكنى في واسط..

ولما انتهى الحجاج من بنائها، نقل مركز الإمارة إليها، وظلت واسط بعد الحجاج مركزا لعامل الخليفة في العراق.

obeikandl.com

سياسة عبد الملك بن مروان
والحجاج بن يوسف الثقفي في العراق

عبد الملك والحجاج

كيف كان موقف عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من سياسة عامله في العراق..؟؟

أما أن عبد الملك كان أكثر ميلا إلى سياسة اللين والمسالمة فهذا مما لا شك فيه، ولكنه كما يظهر لنا كان يترك الأمر لعامله حين يستعصي عليه إقرار الشطر الأول من سياسته، فقد عرض على أهل العراق عزل الحجاج كما قدمنا، فأبوا ذلك عليه، فنفض عندئذ يده من أمرهم، وترك للحجاج مهمة محاربتهم وأخذهم بالشدة، ولكنه كان يعود أحيانا إلى نفسه، لما يراه من انحراف الحجاج في سياسة القمع والإرهاب، فينكر ذلك عليه، ويأسف لما وقع، ويود لو يكون بالإمكان إصلاح الحال، وإن كان في الوقت نفسه يعلم علم اليقين أن العراق بحاجة إلى شيء من الشدة والحزم بعد الثورات الكثيرة التي وقعت فيه ليخلد الناس إلى السكينة والسلام..

ولعل هذه الناحية تفسير لنا الأسباب التي من أجلها كان يمكن للحجاج في الحكم، ولا يعرض لشؤونه الإدارية ولأعماله الشديدة في كثير ولا قليل ثقة منه أن أهل العراق قد أحرجوا الحجاج فأخرجوه، ولو كان غيره، لما وفق إلى توطيد الأمان والسلام في هذا القسم العظيم الخطير من الإمبراطورية العربية الواسعة.

ويقول الجاحظ: كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما وعابدها قبل أن يستخلف، ورعا وزهدا، فجلس يوما في خاصته، وقبض على لحيته فشمها مليا ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة أطالها ثم نظر في وجه القوم وقال:

«ما أقول يوم المسألة عن أمر الحجاج وقد أدحض المحتج على العليم بما طوته الحجب، أما أن تمليكي له قرن بي لوعة يلبها التذكار كيف وقد علمت فتعاميت، وسمعت فتصامت، وحمله الكرام الكاتبون، والله لكأني آلف هذا الطعن على نفسي، بعد أن نعت الأيام بتصرفها نفسا حلق لها الوعيد، بتصرم الزوال، وما أبقت الشبهة للباقي متعلقا، وما هو إلا الغل الكامن، اللهم أنت لي أوسع غير منتصر ولا معتذر.»

قلت هذا الكلام يختبر به ما في نفوس القوم الذين ظهر منهم إمارات الغيظ من الحجاج على ثقة عبد الملك به واختياره على غيره، وطرح كل ما يقال فيه علما منه بأن لا يقوم أحد بما قام به الحجاج ثم قال:

- يا كاتب هات الدواة والقرطاس... فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه:

وسألني عبد الملك للحجاج قوله: «من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد فقد أصبحت بأمرك برما يقعدني الإشفاق ويقيمني الرجاء، عجزت في دار السعادة وتوسط الملك وحين المهل واجتماع الفكر التمس العذر في أمرك، فأنا لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون إلى الزلة من نفسي، والتوقع لما طويت عليه الصحف أعجز، وقد كنت أشركتك فيما طوقني الله حمله والأث بحقوي من أمانة الله في هذا الخلق المرعي فدلت منه على الحزم والجد في إماتة بدعة وإنعاش سنة، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها، حتى صرت حجة العائب، وغدر اللاعن والشاهد والقائم، فلعن الله أبا عقيل وما نجل، فالأم والد، وأخبث نسل، فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب، لقد ألبستكم ملبسكم، وأقعدتكم على روابي خططكم، وأحلتكم على قدر منعتكم، فكنتم بين حافر وناقل وماتح في الفلوات القفرة، ما تقدم بكم الإسلام ولقد تأخرتم، وما الطائف منا ببعيد يجهل أهله، ثم قمت بنفسك وطمحت بهمتك وسرك انتضاء سيفك، فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح بن زنباح وشرطته وأنت على معاونته يومئذ محسود، فهفا أمير المؤمنين والله يصلح بالتوبة والغفران زلته، وكان بك وكان ما لو لم يكن لكان خيرا مما كان، كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين فقرعت صفاتنا وهتكت حجبنا، وبسطت يدك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة، في أوعية ثقيف، فاستغفر الله لذنب ما له عذر، فلئن استقال أمير المؤمنين فيك الرأي، فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم إذا ائتمنه على الصدقات وكان عبده فهرب بها عنه وما هو إلا اختبار للثقة، والمطلب لمواضع الكفاية، فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له، فكأن هذا ألبس

أمـير المؤمنـين وأظعـن عنـه باللعنـة اللازمـة والعقوبـة الناهكـة إن شـاء اللـه إذا اسـتحكم لأمـير المؤمنـين مـا يحـاول مـن رأيـه والسـلام.»

ودعـا عبـد الملـك مـولى لـه يقـال لـه (نباتـة) لـه لسـان وفضـل رأي، فناولـه الكتـاب ثـم قـال:

- يـا نباتـة العجـل ثـم العجـل حتـى تـأتي العـراق فضـع هـذا الكتـاب في يـد الحجـاج وترقـب مـا يكـون منـه، فـإن جـبن عنـد قراءتـه واسـتيعاب مـا فيـه، فأقلعـه مـن عملـه وانقلـع معـه حتـى تـأتي بـه، وهـدى النـاس حتـى يأتيهـم أمـري، بمـا تصفنـي بـه في حـين انقلاعـك مـن حبـي لهـم السـلامة، وأن هـش للجـواب ولم تأخـذه الحـيرة فخـذ منـه مـا يجيـب بـه، وأقـرره عـلى عملـه، ثـم أعجـل عـلي بجوابنـه.

سفر نباتة

قـال نباتـة: فخرجـت قاصـدا إلى العـراق فضمتنـي الصحـاري والفيافي واحتـواني القر وأخـذ منـي السـفر، حتـى وصلـت فلـما وردتـه، أدخلـت عليـه وعـلي شـحوب مضنـى، وقـد توسـط خدمـه مـن نواحيـه، وتدثـر بمطـرف خـز أدكـن، ولاث بـه النـاس مـن بـين قائـم وقاعـد، فلـما نظـر إلي وكان لي عارفـا، قعـد ثـم تبسـم تبسـم الرجـل، ثـم قـال:

- أهـلا بـك يـا نباتـة أهـلا بمـولى أمـير المؤمنـين، لقـد أثـر فيـك سـفرك، وأعـرف أمـير المؤمنـين بـك ضنينـا فليـت شـعري مـا دهمـك أو دهمنـي عنـده؟

فسلمت وقعدت فسأل:

- ما حال أمير المؤمنين وخوله.

فلـما هـدأ أخرجـت لـه الكتـاب فناولتـه إيـاه فأخـذه منـي مسرعـا ويـده ترعـد ثـم نظـر في وجـوه النـاس فـما شـعرت إلا وأنـا معـه ليـس معنـا ثالـث، وصـار كل مـن يطيـف مـن خدمـه يلقـاه خاليـا لا يسـمعون منـا إلا الصـوت فـلا يقربـون، ففـك الكتـاب فقـرأه، وجعـل يتثـاءب ويـردد تثاؤبـه ويسـيل العـرق عـلى جبينـه وصدغيـه عـلى شـدة الـبرد مـن تحـت قلنسـوته، وعـلى رأسـه عمامـة خـز خـضراء، وجعـل يشـخص إلي ببـصره سـاعة كالمتوهـم، ثـم يعـود إلى قـراءة الكتـاب ويلاحظنـي النظـر كالمتفهـم إلا أنـه واجـم ثـم يعـاود الكتـاب وإني لأقـول مـا أراه يثبـت حروفـه مـن

شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش، ورجع إليه ذهنه فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلا:

وإذا المنية انشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

«قبح والله منا الحسن يا نباتة، وتوا كلتنا عند أمير المؤمنين الألسن، وما هذا إلا سانح فكرة نمقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي أمير المؤمنين فينا يا غلام»، فتبادر الغلمان الصيحة، فملى علينا منهم المجلس، حتى دفأتني منهم الأنفاس، فقال: الدواة والقرطاس، فأتى بدواة وقرطاس، فكتب بيده وما رفع القلم إلا مستمدا حتى سطر مثل خد الفرس، فلما فرغ قال لي يا نباتة: هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا، قلت: لا، قال: إذا حسبك منا مثلهم ثم ناولني الجواب وأمر لي بجائزة فأجزل وجرد لي كسا ودعا لي بطعام فأكلت، ثم قال: نكلك إلى ما أمرت به من عجلة أو توان، وإني لأحب مقارنتك والأنس برؤيتك، فقلت: كان معي قفل مفتاحه معك، ومفتاح قفلك عندي، فأجدت لك الوافية بالأمرين، فاقفلت المكروه وفتحت العافية، وما ساءني ذلك وما أحب أن أزيدك بيانا.

ثم نهضت وقام مودعا لي فالتزمني وقال: بأبي أنت وأمي، رب لفظة مسموعة، ومحتقر نافع فكن كما أظن، فخرجت مستقبلا وجهي حتى وردت على أمير المؤمنين، فوجدته منصرفا من صلاة العصر فلما رآني قال: «ما اجتواك المضجع يا نباتة»، فقتل: «من خاف من وجه الصباح أدلج»، فسلمت وانتبذت عنه فتركني حتى سكن جاشي، ثم دفعت إليه الكتاب فقرأه مبتسما فلما مضى فيه ضحك، حتى بدت لسه سن سوداء ثم استقصاه فانصرف إلي فقال: «كيف رأيت إشفاقه». فقصصت عليه ما رأيت منه، فقال: «صلوات الله على الصادق الأمين إن من البيان لسحرا».

ثم قذف الكتاب إلي فقال اقرأ فقرأته فإذا فيه:

كتاب الحجاج

«بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل بكفالة الله الواجب لذوي أمره من عبد اكتنفته الذلة ومد به الصغار إلى وخيم المرتع ووبيل

المكرع، من جائل قادح ومعتر فادح، والسلام عليكم ورحمة الله التي اتسعت فوسعت وكان بها التقوى إلى أهلها قائدا، فإني أحمد الله إليك راجيا لعطفك بطعفه، الذي لا إله إلا هو، أما بعد كان الله لك بالدعة في دار الزوال، والأمن في دار الزلزال، فإنه من عنيت به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصا فما هو إلا سعيد يؤثر أو شقي يؤتر، وقد حجبني عن نواظرك السعد لسان مرصد ونافث حقد، انتهز به الشيطان حين الفكرة، فافتتح به أبواب الوسواس بما تحتويه الصدور فواغوثاه باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه، واعتصاما بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم الإيمان وصادق السنة، فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقا نبا عنه كيده، وكثر عليه تحسره، بلية قرع بها فكر أمير المؤمنين ملبسا وكادحا مؤرثا، ليفل عن غربه الذي نصبني، ويصيب ثارا لم يزل به موتورا، وأذكره قديما ما مت به الأوائل حتى لحقت بمثله منهم، وبما كنت أبلوه من خسة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلت ذلك بالتشرط لروح ابن زنباع، وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي، بأن الذي عبر به القوم مصانعهم من أشد ما كان يزاوله أهل القدمة الذين اجتبى الله منهم وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان وارتفعوا بما يكون، وما جهل أمير المؤمنين وللبيان موقعه غير محتج ولا معتد، إن متابعة روح بن زنباع طريق إلى الوسيلة لمن أراد من فوقه، وأن روحا لم يلبسني العزم الذي به رفعني أمير المؤمنين عن خوله، وقد ألصقتني بروح بن زنباع همة لم تزل نواظرها ترمي بي البعيد وتطالع الأعلام، وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيبا اتقسمه الإشفاق من سخطه والمواظبة على موافقته، فما بقي لنا بعد الإصابة أمر تجول به النفس وتطرف النواظر، ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير المتثبط لمن يتلوه، المتطاول لمن يقدمه، غير منبت موجف، ولا متثاقل مجحف، ففت الطالب ولحقت الهارب، حتى ثارت السنة وبادت البدعة، وخسأ الشيطان وحملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة المثلى، وأمير المؤمنين ولي المظلوم ومعقل

الخائف وستظهر له المحنة نبأ أمري ولكل نبأ مستقر، وأن أمير المؤمنين لرابع أربعة أحدهم ابنة شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ رمت بالظن غرض اليقين تفرسا في النجي المصطفى بالرسالة فحق لها فيه الرجاء وزالت شبهة الشك بالاختبار، وقبلها العزيز في يوسف، ثم الصديق في الفاروق رحمة الله عليها، وأمير المؤمنين في الحجاج وما حسد الشيطان بأمير المؤمنين خاملا ولا شرق بغير شجن، ولقد سمعت لأمير المؤمنين في صالح صلوات الله عليه في ثقيف، مقالا هجم بي الرجاء لعدله عليه، بالحجة في رده بمحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر عن الله عز وجل بحكاية غر الملا من قريش عند الاختيار والافتخار، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم، قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فوقع اختيارهم عند الباهات بنفخة الكبر وكبر الجاهلية على الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار بهما صنوين، ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي، وما قدمتني يا أمير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها وأن لها مقالا وحبا ومعاندة قديمة، إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشفق على سيده المغضب والأمر إلى أمير المؤمنين عزل أم أقر، وكلاهما عدل متبع وصواب معتدل، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله».

قال نباتة: فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك فلما استوعبته سارقته النظر على الهيبة منه، فصادف لحظي لحظه، فقال:

- «قطعه ولا تعلمن بما كان أحدا».

لما مات عبد الملك فشى عني الخبر.

بين الحجاج وأنس بن مالك

وهناك قصة ثانية جرت بين الحجاج وأنس بن مالك خادم رسول الله، فقد شتم الحجاج أنس بن مالك وأغرق في إيذائه، فكتب أنس إلى عبد الملك بالأمر يشكوه، وأدرج كتاب الحجاج في جوف كتابه.

قال إسماعيل ابن عبد الله بن أبي المهاجر: بعث إلي عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث إلي في مثلها، فدخلت عليه، وهو أشد ما كان حنقا وغيظا، فقال:

- يا إسماعيل، ما أشد علي أن تقول الرعية ضعف أمير المؤمنين، وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لا يقبل له حسنة، ولا يتجاوز عن سيئة.

فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب إلي يذكر أ، الحجاج قد أضر به وأساء جواره، وقد كتبت في ذلك كتابين، كتابا إلى أنس بن مالك، والآخر إلى الحجاج، فأقبضهما ثم أخرج على البريد فإذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك، فادفع له كتابي وقل له: اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ولن يأتي أمر تكرهه إن شاء لله ثم ائت الحجاج فادفع إليه كتابه وقل له: قد اغتررت بأمير المؤمنين غرة لا أظن يخطئك نشرها، ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه، حتى تفهمني إياه إذا قدت علي إن شاء الله.

قال إسماعيل: فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بأن بن مالك في منزله، فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين وأبلغت رسالته، فدعا له وجزاه خيرا. فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له:

- أبا حمزة أن الحجاج عامل، ولو وضع لك في جامعة لقدر أن يضرك وينفعك، فأنا أريد أن تصالحه.

قال: ذلك إليك. لا أخرج عن رأيك. ثم أتيت الحجاج، فلما رآني رحب وقال: والله لقد كنت أحب أن أراك في بلدي هذا.

قلت: وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير ما أرسلت به إليك.

قال: وما ذاك، قلت: فارقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك.

قال: ولم؟

فدفعت إليه الكتاب، فجعل يقرأه وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه، ثم قال: اركب بنا إلى أنس بن مالك.

قلت له: لا تفعل، فإني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك، وذلك للذي أشرت عليه من مصالحته.

وكان كتاب أمير المؤمنين ما يأتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد. فإنك عبد طمت بك الأمور، فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك وعدوت طورك، وايم الله لأغمزنك كبعض غمزات الليوث للثعالب، ولأركضنك ركضة تدخل فيها في وجارك، أذكر مكاسب آبائك بالطائف إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم، فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأة منك على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة نقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته، وأظنك أردت أن تروزه بها لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها، فإن سوغتها مضيت قدما وإن غصصت بها وليت دبرا، فعليك لعنة من عبد أخفش العينين أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين. وايم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما وانتهكت له عرضا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين لبعث إليك من يسحبك ظهرا لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك فيحكم فيك بما أحب، ولم يخف على أمير المؤمنين نبوك ولكل منا مستقر وسوف تعلمون.

قال إسماعيل انطلقت إلى أنس فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج فلما دخلنا عليه قال:

- يغفر الله لك أبا حمزة عجلت باللائمة وأغضبت علينا أمير المؤمنين.

ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

فقال أنس إنك تزعم أنا الأشرار والله أسمانا الأنصار، وقلت أنا من أنجل الناس، والله يقول فينا «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا غير ذلك، فكان المخرج والمشتكي في ذلك إلى الله، وإلى أمير المؤمنين فتولى من ذلك ما ولاه الله، وعرف من حقنا ما جهلت وحفظ

من حقنا ما ضعيت، وسيحكم في ذلك رب هو أرضى للمرضى وأسخط للمسخط، في يوم لا يشوب الحق فيه الباطل ولا النور الظلمة، ولا الهدى الضلالة، والله لو أن اليهود أو النصارى رأت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يوما واحدا لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين».

قال: فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره وترضى عنه، وكتب برضاه وقبوله عذره، ولم يزل الحجاج له معظما هائبا حتى هلك رضي الله عنه.

جواب الحجاج

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدا مناه، فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم علي بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه، يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه، ويذكرني أمير المؤمنين جعلني الله فداه استطالة مني على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جراءة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة نقماته وسطواته على من خالف سبيله، وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي فأملهني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه وما قلده الله من أمور عباده، فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وإفراخ كربتي فقد ملئت رعبا وفزعا من سطوته وفجأة نقمته، وأمير المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات ومضاعف له الحسنات وأعلى له الدرجات أحق من صفح وعفا، وتغمد وأبقى ولم يشمت في عدوا مكباً ولا حسوداً مصبا ولم يجرعني غصصا، والذي وصف أمير المؤمنين من صيغته إلي وتنويهه لي بما أسند لي من عمله وأوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه، مجزي بالشكر عليه والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب بالكفاية، وقد عاين إسماعيل

بـن أبي المهاجـر رسـول أمـير المؤمنـين وحامـل كتابـه مـن نـزولي عنـد مـسرة أنـس بـن مالـك وخضوعـي عنـد كتـاب أمـير المؤمنـين، وإقلاقـه إيـاي ودخولـه بالمصيبـة عـلى مـا سـيعلمه أمـير المؤمنـين، فـإن رأى أمـير المؤمنـين طوقنـي اللـه بشـكره وأعاننـي عـلى تأديـة حقـه، وبلغنـي إلى مـا فيـه موافقـة مرضاتـه، ومـد لي في أجلـه أن يأمـر لي بكتـاب مـن رضـاه وسـلامة صـدره مـا يؤمننـي بـه مـن سـفك دمـي ويـرد مـا شرد مـن نومـي يطمـئن بـه قلبـي فقـد ورد عـلي أمـر جليـل خطبـه، عظيـم أمـره، شـديد عـلي كربـه، اسـأل اللـه أن لا يسـخط أمـير المؤمنـين وأن يثبتـه في حزمـه وعزمـه وسياسـته وفرسـاته ومواليـه وحشـمه وعمالـه وصنائعـه مـما يحمـد بـه حسـن رأيـه، بعـد همتـه وأنـه ولي أمـير المؤمنـين والـذاب عـن سـلطانه والصانـع لـه في أمـره والسـلام.»

فحدث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال:

- يا كاتب أفرخ روع أبي محمد.

فكتـب إليـه بالرضـا عنـه، ويـرى القـارئ مـن كتـاب عبـد الملـك هـذا وجوابـه للحجـاج والي العـراق مـن قبلـه أن القـوم كانـوا يسـتجيرون العقوبـة بالشـتم والإفحـاش في السـب واللعـن عنـد عظـم الجنايـة وكيـف يتملـق الضعيـف للقـوي، ويحتمـل مـا يـرد عليـه منـه ويتلقـاه بالرضـا والتسـليم.

وفي الواقـع فيـما ذكرنـاه مـن هذيـن الكتابـين، وتكلفنـاه مـن نشرهـما قـد أغفلنـا أمـورا كثـيرة فيهـا إحـراج فظيـع، وتوبيـخ شـديد، مـا كان يجـب أن يصـدر مثلـه مـن أمـير المؤمنـين، وهـو الـذي يسـتطيع أن يقطـع ويصـل، ويعـزل ويبقـي، ولكنهـا عـادة درجـة، لم يكـن القـوم كـما يظهـر يجـدون فيهـا شرا ولا حرجـا.

موت عبد الملك بن مروان وخلافة الوليد بن عبد الملك

نشاط الحجاج في سياسة الفتوح

انتهت الثورات العراقية المختلفة، على النحو الذي بسطناه في الفصول السابقة، وقد رأينا كيف انصرف الحجاج بعدها إلى الأخذ بسياسة الشدة والقمع، غير متطلف ولا متكلف لونا واحدا من الإحسان أو الحلم، ومن غريب أمره إنه ما كاد ينتهي من تهدئة الثورات في قطره حتى انصرف إلى بسط سلطان الإمبراطورية العربية فيما وراء النهر، ومنغوليا والهند إلى السند وقد بقي الحجاج في واسط لا يتحرك منها، ولكنه كان يبعث البعوث ويجند الجنود، ويعين القواد، ويذهب بفخر الانتصارات المختلفة.

ومن المؤكد لدينا اليوم أن غلبة الحجاج على الخوارج والثورات الداخلية المختلفة، هو الذي مكن هذه الفتوح، ولولا ذلك، لظلت هذه الأمصار البعيدة السحيقة، بعيدة عن سيوف العرب المسلمين...

ولكن هناك مستشرقا فرنسيا يدعى «رينو» رأى في هذه الفتوحات التي قوم بها قواد الحجاج، غير ما نراه نحن، فهو يذهب إلى أن غاية الحجاج منها كان لمصلحته الخاصة لا للمصلحة الإسلامية العربية العامة، فقد كان الحجاج يخشى تبدل نجمه، وانقلاب أمره، وإفلات الأمر من يده، فذهب يمهد لباقيات أيامه بفتوح جديدة يستطيع الالتجاء إليها حين يهوي نجمه، ويذهب سلطانه، ونظريته هذه غريبة، هي أقرب إلى الخيال منها إلى الأمر الواقع والشيء المنظور...

وشيء آخر أيضا وهو أن الحجاج في الواقع كان يعلم علم اليقين أن سلطانه مستمد من أمية وخلفاء أمية، وأنه ليستحيل عليه الاعتماد على غير بني أمية وجنود الشام في تثبيت سلطانه ومحاربة أعدائه وخصومه، ولذلك كان يخدم العرش الأموي خدمة الرجل الذي يخدم نفسه ويحافظ على حياته. فاتهامه إذا في الرغبة بشق عصا الطاعة إذا نزعوا عنه سلطانه أمر بعيد عن الاحتمال غريب عن الحقيقة...

والواقع أن المعارك بين العرب والترك على حدود خراسان كان دائما وأبدا أمرا واقعا منذ عهد معاوية، فقد كانت هذه المنطقة الواسعة الأطراف ممزقة إلى دويلات

صغيرة يدفع بعضها الجزية للدولة العربية، ويرفض البعض الآخر ذلك، ولذلك كانت الزحوف والمعارك دائما تقع بين هذه الدويلات الصغيرة والدولة العربية الناشئة، هؤلاء يعملون للمحافظة على استقلالهم، وهذه تسعى لبسط سلطانها عليهم...

فلما كان المهلب في خراسان سنة٧٩ للهجرة، لم يوفق إلى انتصارات حربية رائعة، ولكنه تمكن من ضبط خراسان وتهدئة الأحوال فيها في الفترة التي كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث تهدد سلطان الحجاج في الشرق، وتعمل على تمزيق الروابط السياسية التي تربط العراق بأمية...

ومن المؤكد لدينا اليوم أنه لو انضم المهلب إلى ابن الأشعث، ومشى بجنوده لنصرته، لقضي على الحجاج القضاء المبرم، ولتمزقت الإمبراطورية العربية إلى دولتين كبيرتين واحدة في الشرق وأخرى في الغرب...

ففي سنة ٨٠ للهجرة قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فحاصرها، بينما كان ابنه يزيد يحارب ملك الختل، ويتغلب عليه، وفي هذه الأثناء مات المغيرة بن المهلب بخراسان، وكان قد استخلفه أبوه المهلب عليها، فمات في رجب سنة ٨٢ للهجرة، فأتى الخبر يزيد بن المهلب، وأهل المعسكر، فلما علم المهلب بالفاجعة استرجع وجزع حتى ظهر جزعه، ثم دعا يزيدا ووجهه إلى مرو ووصاه بما يعمل وأن دموعه تنحدر على لحيته.

ثم صالح المهلب أهل كش ورجع إلى مرو فمات في مرو الروز واستخلف ابنه يزيد ليقوم مقامه من بعده.

ولما علم الحجاج بوفاة المهلب أقر ابنه يزيد على خراسان وكان موت المهلب في سنة ٨٢ للهجرة.

فلما جاءت سنة ٨٤ للهجرة، فتح يزيد قلعة (نيزك)، وكان قد وضع عليها العيون، فلما بلغه خروج (نيزك) عنها، سار إليها فحاصرها، فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحصن القلاع، وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيما وإكبارا، ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح، وكان يكتب له يحيى بن يعمر العدواني فقال «أنا لحقنا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة،

ولحقت طائفة برؤوس الجبال، وعرائر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار.»

فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟

فقيل: يحيى بن يعمر، فكتب إليه ليحمله على البريد، فقدم إليه أفصح الناس، فقال له الحجاج:

- أين ولدت؟

قال: بالأهواز.

قال: فهذه الفصاحة!

قال: حفظت من كلام أبي، وكان فصيحا.

قال: أخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد؟

قال: نعم كثيرا.

قال: ففلان؟ قال: نعم.

قال: فأخبرني هل ألحن أنا؟

قال: نعم تلحن لحنا خفيا، تزيد حرفا وتنقص حرفا.

فقال له الحجاج. قد أجلتك ثلاثا، فإن وجدتك بأرض العراق بعدها قتلتك...

فإذا كانت سنة ٨٥ للهجرة عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان، واختلف الرواة في سبب ذلك، وإن كان الحجاج في كتابه إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فيه بعزل يزيد، يتهمهم بأنهم (زبيرية) فكتب له عبد الملك يقول:

- إني لا أرى طاعتهم لآل الزبير نقصا بآل المهلب، وفؤاهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي...

فكتب إليه الحجاج يخوفه غدره فكتب عبد الملك إليه:

- أنت قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلا يصلح لخراسان فسمى قتيبة بن مسلم.

فأذن له عبد الملك عندئذ بعزل يزيد. فكره الحجاج أن يكتب له بذلك، فكتب إليه يأمره أن يستخلف أخاه المفضل ويقبل إليه. ففعل، وخرج يزيد من خراسان في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأقر الحجاج أخاه المفضل تسعة أشهر، ثم عزله... وقيل أن السبب في عزله أن الحجاج لما فرغ من عبد الرحمن

بـن الأشـعث، لم يكـن لـه هـم إلا يزيـد بـن المهلـب وأهـل بيتـه، وقـد كان أذل أهـل العـراق كلهـم إلا آل المهلـب ومـن معهـم بخراسـان.

ويقـال أيضـا أن الحجـاج كان يبعـث إلى يزيـد ليأتيـه، فيعتـل عليـه بالعـدو والحـروب، فـكان مـا كان مـن اعتزامـه عزلـه.

والواقـع أن عـزل يزيـد بـن المهلـب مـع صدقـه في الخدمـة، وإخصـلاه لآل أميـة وللحجـاج، أمـر يسـتفلت النظـر، ويبعـث عـلى إطالـة الفكـرة، والحجـاج في الواقـع كان غريبـا مـع عمالـه، شـديدا عليهـم، يحـاول حملهـم عـلى رأيـه حتـى في سـير الحـروب، وخطـط الزحـوف، مـع بعـده عـن سـاحة العـراك، وقلـة معرفتـه بالحـرب والقتـال، وقـد يكـون مـن الأسـباب التـي حملـت الحجـاج عـلى التنكـر لآل المهلـب، مـا اسـتطار مـن شـأنهم، وفشـا مـن أمرهـم، وازديـاد حـب النـاس لهـم، وإذا فنحـن أمـام ظاهـرة هـي أقـرب إلى الحسـد منهـا إلى شيء آخـر...

ولاية العهد

وتمـضي الأيـام فيفكـر الحجـاج في ولايـة العهـد بعـد عبـد الملـك، ويخـشى أن يقـضي عبـد الملـك نحبـه عـلى حـين غـرة، وهـو شـيخ كبـير فيـلي الخلافـة مـن بعـده أخـوه عبـد العزيـز بـن مـروان، ولي العهـد، ولم يكـن يعطـف عـلى الحجـاج ولا يثـق بـه، وكان الحجـاج يعلـم ذلـك، ويستشـعر في قـرارة نفسـه خوفـا مـن عواقبـه، وفتقـت لـه الفكـرة يومـا وبعـد أن خـلا لـه الجـو في العـراق واسـتتب الأمـن وذلـك في أوائـل سـنة ٨٥ للهجـرة، فكتـب لعبـد الملـك كتابـا يزيـن لـه البيعـة للوليـد مـن بعـده، وكان عبـد الملـك يفكـر في ذلـك طويـلا، ولكنـه لم يكـن يجـرؤ عليـه. فلـما وصلـه كتـاب الحجـاج وكان قـد نصحـه روح بـن زنبـاع بمثـل ذلـك قبـلا، واسـتقام لـه الـرأي في ذلـك، كتـب إلى عبـد العزيـز بـن مـروان فقـال:

- رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك.

فـأبى عبـد العزيـز، فكتـب إليـه عبـد الملـك ليجعـل هـذا الأمـر لـه، ويجعلـه للوليـد مـن بعـده، فكتـب إليـه عبـد العزيـز:

«أرى في ابنـي أبي بكـر مـا تـرى في الوليـد» فكتـب إليـه عبـد الملـك ليحمـل إليـه خـراج مـصر، فكتـب عبـد العزيـز:

«إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لا تفسد علي بقية عمري فافعل».

فرق له عبد الملك وتركه وقال للوليد وسليمان:

- أن يرد الله أن يعطيكما الخلافة، لا يقدر واحد من العباد على رد ذلك.

وبعد أشهر مات عبد العزيز، فلما أتى خبر موته عبد الملك، أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا، وكتب بالبيعة لهما إلى كل الأمصار.

وفاة عبد الملك

وفي منتصف شوال سنة ست وثمانين للهجرة، توفي عبد الملك بن مروان وكان يقول «أخاف الموت في شهر رضمان وفيه ولدت، وفيه فطمت، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناس» فمات للنصف من شوال حين أمن الموت في نفسه، وكان عمره ستين سنة، وقيل ثلاثا وستين سنة، وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال...

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء:

- إن شرب الماء مات...

فاشتد عطشه يوما فقال: يا وليد اسقني.

قال: لا أعين عليك.

فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء.

فمنعها الوليد، فقال: لتدعنها أو لا خلعتك...

فقال: لم يبق بعد هذا شيء.

فسقته فمات. ودخل الوليد عليه وابنته فاطمة تبكي عند رأسه فقال:

- كيف أمير المؤمنين؟

فقيل له: هو أصح.

فلما خرج تمثل عبد الملك:

ومتخبر عنا يريد لنا الردى ومستخبرات والدموع سواجم

وأوصى بنيه فقال: «أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية، وأحصن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، وانظروا مسلمة فأصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومحببكم الذي عنه ترمون، وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ البلاد وأذل الأعداء، وكونوا بني أم بررة، لا تدب بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أحرارا، فإن القتال لا يقرب ميتة، وكونوا للمعروف منارا، فإن المعروف يبقى أجره وذكره، وضعوا معروفكم عند ذوي الإحسان فإنهم أصون له، وأشكر لما يؤتي إليهم منه، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب، فإن استقاموا فاقبلوا، وإن عادوا فانتقموا.»

عبد الملك في مرضه

وكان عبد الملك عاقلا حازما أديبا لبيبا عالما، وقال زياد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان.

وقال جعفر بن عقبة: قيل لعبد الملك:

- أسرع إليك الشيب؟

فقال: شيبني ارتقاء المنابر، وخوف اللحن.

وقال عبد الملك عن نفسه: ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر مني، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام، ولكنه لبخله لا يصلح أن يكون سائسا.

وقال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرضه:

- كيف تجدك؟

قال: أجني كما قال الله تعالى «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم. الآية»

وقال المفضل بن فضالة عن أبيه: استأذن قوم على عبد الملك بن مروان وهو شديد المرض، فدخلوا عليه، وقد أسنده خصي إلى صدره، فقال لهم:

- إنكم دخلتم علي عند إقبال آخرتي، وأدبار دنياي، وإني تذكرت أرجي عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله وأنا خلو من هذه الأشياء فإياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها...

ويروى أن عبد الملك بن مروان لما اشتد مرضه قال: «ارفعوني على شرف» – على محل عال – ففعلوا ذلك، فتنسم الروح، ثم قال:

- يا دنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير، وإن كبيرك لحقير، وإن كنا منك لفي غرور، وتمثل بهذين البيتين:

أن تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح عن موسيء ذنوبه كالتراب

صفات عبد الملك

وقد روى صاحب العقد، أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوما فقال:

«أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف – يعني عثمان بن عفان – ولا بالخليفة المداهن – يعني معاوية – ولا بالخليفة المأمون – يريد يزيد بن معاوية، فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا، ثم نزل»

وخطب أيضا الناس يوما فقال: أيها الناس إن الله حد حدودا وفرض فروضا، فلما زلتم تزدادون في الذنب تزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف».

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية فيما ذكره المسعودي من أن بعض جلسائه قال له يوما: أريد الخلوة بك.

فلما خلا به قال له عبد الملك: بشرط ثلاث خصال: لا تطر نفسي فأنا أعرف بها منك، ولا تغتب عندي أحدا، فلست أسمع منك، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب.

قال: أتأذن في الانصراف.

قال: إذا شئت.

وقال عبد الملك لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر به، وأصنع الشر فلا أساء به...

فقال: الآن تكامل فيك موت القلب.

وكان عبد الملك أول من غدر بالإسلام، وقد تقدم فعله بعمرو بن سعيد، وكان أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من نهى عن الكلام في

حضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعونهم، وأول خليفة بخل، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف فإنه قال في خطبة بعد قتل ابن الزبير: «ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقالي هذا إلا ضربت عنقه.»

خلافة الوليد بن عبد الملك

ولما دفن عبد الملك بن مروان انصرف الوليد عن قبره فدخل المسجد وصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فخطبهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا ... فكان أول خليفة عزى نفسه وهناها.

obeikandl.com

القوة الروحية

تسلم الوليد بن عبد الملك عرش الخلافة في سنة ٨٦ للهجرة، والسلام الداخلي يغمر الإمبراطورية العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقد كان من أثر هذا السلام الذي كان ضروريا للإمبراطورية في هذا العهد، إن عادت الفتوح إلى سباق عهدها، ومشت رايات العرب المسلمين إلى ما حولها من الأمصار والبلاد التي كانت بحاجة إلى هذا الفتح، يعزز أمورها ويثبت شؤونها، ويوطد نظمها، ويحمل إليها هذه المثل العربية العليا في السياسة والإدارة والعدل والنظام...

ولقد اشتهر في عهد الوليد أربعة من القواد كان لهم أثر عظيم في هذه الفتوحات العظيمة التي انتظمت في المشرق، وانتظمت في المغرب حتى بلغت الحدود الفرنسية، واكتسحت إسبانيا، ولو شاء ربك لامتدت منها إلى بلاد الغال – فرنسا – وبلاد الألمان، ثم نزلت إلى القسطنطينية فجمعت بذلك بين المشرق والمغرب في صعيد واحد، كان حتما – لو تم هذا وأصبح أمرا منظورا – أن يتبدل وجه التاريخ، وأن تظهر على أديم هذه الارض دنيا جديدة ليست تساوق هذه الدنيا التي نراها اليوم في كثير ولا قليل...

كان الإسلام يضطرب في حياة روحية، لم يرى العالم مثيلا لها منذ انبثاقه حتى يومنا هذا، والذين يذهبون إلى أن مصير الإنسانية معلق برخائها المادي، وأن تطورها إلى المثل العليا والكمال متأثر بهذا الرخاء، يخطئون خطأ عظيما ما في ذلك شك ولا ريب..

فالتاريخ الذي نتلطف في تسوية فصوله هذه شاهد على أن مصير الإنسانية مرتبط بحياتها الروحية وبالإيمان كل الإيمان بهذه الحياة الروحية، وتاريخ المسلمين الأولين يوم ركبوا الصحراء إلى مشارف الشام وحدود فارس أكبر دليل على أن حياتهم الروحية الرائعة مكنتهم من الغلبة على الحياة المادية الجامدة التي كانت تضطرب في فارس، وتغمر الروم، وتسيطر على العالم القديم في ذلك العهد القصي..

وتاريخ الخوارج نفسه شاهد أيضا على حياتهم الروحية، وإيمانهم القوي بهذه الحياة الروحية، وقد مكنهم هذا من محاربة جيوش الإمبراطورية العربية مدى أربعين عاما، ما انكسر لهم فيها لواء، ولا انهزم جيش، ولا تضعضع جحفل، وسبب ذلك أن

حياتهـم الروحيـة كانـت أقـوى مـن خصومهـم، وكذلـك نـرى أن القـوة الماديـة إذا كانـت تسـتطيع قهـر القـوة الماديـة فهـي عاجـزة كل العجـز عـن مقاومـة القـوة الروحيـة...

القوة الروحية عند محمد «ص» وأنصاره

كانـت الوثنيـة الديـن الغالـب في بـلاد العـرب حـين مـشى محمـد «ص» مـن غـار حـراء يدعـو أهلـه إلى الإيمـان باللـه وحـده، والعبوديـة لـه وحـده، والمسـاواة أمامـه والإخـاء فيـه، وكان للنصرانيـة واليهوديـة دعـاة في بـلاد العـرب، وكان لهـما اتبـاع وأنصـار، وكانـت المجوسـية الفارسـية معروفـة، ففـارس كانـت تتاخـم بـلاد العـرب بسـلطانها عـلى الحـيرة واليمـن، وكان أهـل مكـة أصحـاب سـلطة ومجـد، وأصحـاب تجـارة ومـال وخـير وأولي بـأس مـادي شـديد، ومـع ذلـك فـإن القـوة الروحيـة التـي دعا بهـا محمـد «ص» إلى التوحيـد تغلبـت عـلى أموالهـم وبطشـهم وبأسـهم، ومـا هـي إلا الأيـام تسـاير الشـمس حتـى اقتلعتهـم مـن عروشـهم وأجلسـت عليهـا أقوامـا غيرهـم مـن المسـتضعفين...

هـذه القـوة الروحيـة التـي مكنـت مـن بسـط سـلطانها في الجزيـرة، عـادت فمشـت مـن الجزيـرة إلى الحـدود البعيـدة، والأنهـر العذبـة، فدانـت أمامهـا القـوة الماديـة، ولم يمـض قـرن واحـد عـلى خـروج الدعـوة الإسـلامية من بـلاد العـرب حتـى كان الذيـن دانوا بالإسـلام مئـات الألـوف، وحتـى كانـت قـوة الإسـلام الروحيـة قـد غـزة القلـوب والعقـول ببسـاطتها ومخاطبتهـا النفـس الإنسـانية في أعظـم نواحيهـا سـموا وعظمـة، لكـن أوضاعـا ماديـة مـن أوضـاع أهـل الأديـان الذيـن اعتنقـوا الإسـلام مـا لبثـت أن تسربـت إلى بعـض نواحيـه، كـما أن دعايـات سياسـية عملـت جهدهـا لتكـثر مـن هـذه الأوضـاع الماديـة ولكنهـا لم تكـن مـن الخطـورة بحيـث تفسـد الفتـوح الإسـلامية التـي مـا لبثـت بعـد أن تمكنـت من القضـاء على الخـوارج أن أخـذت تمـشي إلى مـشرق الأرض تـارة، ومغربهـا أخـرى، وكذلـك عـادت القـوة الروحيـة التـي امتـاز بهـا الإسـلام إلى سـابق عهدهـا وروعتهـا، فـكان مـن أثـر ذلـك هـذا النجـاح العظيـم الـذي أحرزتـه جيـوش الإسـلام في حروبهـا الجديـدة.

فتوحات قتيبة بن مسلم

لقـد اشـتهر في عهـد الوليـد أربعـة في القـواد البارعـين، قتيبـة بـن مسـلم الباهـلي، ومحمـد بـن القاسـم بـن محمـد الثقفـي، ومـوسى بـن نصـير، وطـارق بـن زيـاد.. فأمـا

قتيبـة فقـد ولاه الحجـاج خراسـان سـنة ٨٦ للهجـرة، فخـرج إلى بلـخ، فتلقـاه دهاقينهـا وعظماؤهـا وسـاروا معـه، ولمـا عـبر النهـر اسـتقبله ملـك الصغانيـان بالهدايـا ومفاتيح من ذهـب ودعـاه إلى بـلاده فمضى معـه فسـلمها إليـه، لأن ملـك آخـرون وشـومان كان يسيء جـواره، وسـار قتيبـة بعدهـا إلى آخـرون وشـومان فصالـح ملكهـما عـلى فديـة أداهـا إليه.

وغـزا قتيبـة في سـنة ٨٧للهجـرة بيكنـد وهـي بلـدة بـين بخـاري وجيمـون، حيـث أغـار عـلى الصغـد وقاتلهـم قتـالا شـديدا فانهزمـوا وتفرقـوا، ثـم طلبـوا مـن قتيبـة الصلـح فصالحهـم وولي عليهـم واليـا مـن قبلـه، غـير أنهـم مـا عتمـوا أن انتهـزوا فرصـة غيابـه، فثـاروا عـلى عاملـه وقتلـوه، فعـاد إليهـم واقتحـم مدينتهـم عنـوة، ونقـب سـورهم، وقتل مـن كان فيهـا مـن المقاتلـة، وغنـم منهـم غنائـم عظيمـة ثـم قفـل راجعـا إلى مـرو..

وكان الحجـاج كثـير الاهتـمام لفتـوح قتيبـة بـن مسـلم، وكان قتيبـة لا يتأخـر عنـه بالرسـائل والأخبـار، يأخـذ رأيـه، ويمـشي عـلى طريقتـه، فلـما كان قتيبـة يحـاصر بيكنـد وقـد اسـتنصر أهلهـا الصغـد واسـتمدوهم فأمدوهـم في جمـع كثـير، وأخـذوا الطـرق عـلى قتيبـة لم ينفـذ لقتيبـة رسـول إلى العـراق مـدة شـهرين فاضطـرب الحجـاج وأشـفق عـلى الجنـد، فأمـر النـاس بالدعـاء لهـم في المسـاجد..

وفي ربيـع سـنة ٨٨ اسـتخلف قتيبـة عـلى مـرو أخـاه بشـار بـن مسـلم، وواصـل فتوحاتـه فحالفـه النـصر في بـلاد كرمينيـة بعـد عنـاء شـديد غلب فيـه الـترك وأهـل فرغانه، ثـم سـار إلى بخـارى فلقـي في فتحهـا عنـاء كبـيرا، وأخـيرا تمكـن مـن فتحهـا وصالحه أهلهـا...

وفي سـنة ٩٣للهجـرة فتـح قتيبـة مدائـن خـوارزم صلحـا، ثـم غـزا سـمرقند ففتحهـا بعـد قتـال شـديد وسـاتخلف عليهـا عبـد اللـه بـن مسـلم، ثـم رجـع إلى مـرو، وفي العـام التـالي توجـه إلى فرغانـه وسـار حتـى بلـغ حجنـدة فاشـتبك مـع أهلهـا في حـروب شـديدة أحـرز فيهـا نـصرا عظيـما، ثـم انـصرف إلى كاشـان ففتحهـا وعـاد إلى مـرو...

تقدير الوليد له

وأتـاه كتـاب الوليـد بـن عبـد الملـك في هـذه الأثنـاء يقولـه لـه فيـه: «قـد عـرف أمـير المؤمنـين بـلاءك وجـدك في جهـاد أعـداء المسـلمين، وأمـير المؤمنـين رافعـك وصانـع بـك كالـذي يجـب لـك فأتمـم مغازيـك وانتظـر ثـواب ربـك ولا تغيـب عـن أمـير

المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت به».

وسار قتيبة في سنة ٩٦ للهجرة إلى حدود الصين على رأس جيش عظيم، فلما كان في طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك – واكن الحجاج قد توفي قبله – فلم يعقه ذلك عن الغزو. وواصل سيره حتى اقترب من الصين، فأرسل إلى مليكها وفدا برئاسة هبير بن المشمرج الكلابي، وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين يحاورهم:

- انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عوفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه».

فقال هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خليه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه...

فأجابه ملك الصين: فما الذي يرضي صاحبك؟

فقال هبيرة: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية..

فقال الملك: فأنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها...

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد... فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطأ التراب ثم عاد إلى مرو..

محمد بن القاسم

أما محمد بن القاسم فإنه سار إلى السند سنة ٨٩ للهجرة بعد أن جهزه الحجاج بكل ما يحتاج إليه حتى الأبر والخيوط فنزل بثغر الدبيل وظل يحاصره حتى تمكن من الاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا، وأخذ في مواصلة الفتوح حتى بلغ مهران حيث التقى بداهر ملك السند، وكان هذا لما بلغه خبره استعد لمحاربته فلقيه محمد والمسلمون وهو على فيل

وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديدا، ثبت فيه المسلمون حتى ظهروا على عدوهم فهزموه وقتلوا داهر ملكهم وفي ذلك يقول قاتله:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
أني مرقت الجمع غير مرغب ... حتى علوت عضيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا ... متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة راور عنوة، وتابع فتوحاته حتى وصل إلى (مولتان) "مركز مشهور للحجاج يقع في جنوب بلاد النيجاب" فقاتله أهلها، فانتصر عليهم وغنم منهم غنائم عظيمة، ولما بلغه وفاة الحجاج رجع عن المولتان واستمر في الفتوح حتى دانت له جميع بلاد السند، فلما مات الوليد بن عبد الملك، وتولى سليمان ابن عبد الملك الخلافة عزله عن السند وولي يزيد بن أبي كبشه الكسكسي البلاد مكانه..

موسى وطارق

وأما فتوحات موسى وطارق في إسبانيا وفرانسا، فقد بدأت سنة ٩٢ للهجرة لما عبر طارق البحر ونزل في إقليم البحيرة من جنوب إسبانيا، فلما علم رودريك بنزول العرب إلى بلاده أدرك ما يهدده من خطر عظيم، فسارع لملاقاتهم، فحاربه طارق حربا شديدة هزم بها جنده، وكان يفوق جنده عددا وعددا، ثم أخذ يزحف على مدن إسبانيا فاستولى على أشبيلية، وقرطبة، وطليطلة.

ولما علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر دبت في نفسه الغيرة، وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس، وأن يكون له نصيب من الغنائم، فأخذ يعد جيشا كبيرا لإتمام فتح بلاد الأندلس، وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث هو حتى يلحق به، ولكن طارقا مضى في سبيله يقتحم ما أمامه من البلاد، لأنه رأى بعد استشارة رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر، ويعطي العدو فرصة للاستعداد والتحصن، وجمع كلمتهم ولم شعثهم، فواصل فتوحه حتى وصل إلى طليطلة كما قدمنا.

أما موسى فإنه خرج بجيشه سنة ٩٣ للهجرة، ففتح أشبيلية بعد أن حاصرها شهرا - وكانت قد ثارت - ثم سار إلى مارده، فاستولى عليها، ثم واصل السير حتى

openkanz.com

لقي طارقا فأنبه على مخالفة أمره، وطالبه بالأموال والنفائس التي غنمها ثم سجنه.

فكتب طارق إلى الوليد بن عبد الملك بالأمر، فكتب هذا إلى موسى يأمره بتخلية سبيله ورده إلى عمله، وسار الاثنان لفتح شمالي الأندلس، ففتحا أقاليم أرغونه وقتشاله وكتلونيا واستوليا على سرقسطه وبرشلونه، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس فتم بذلك فتح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ إليها أشراف القوم وكبراؤهم.

فلما انتهيا من هذه الفتوح استدعاهما الوليد إلى دمشق، فمشى موسى إلى دمشق وقبل وصوله إليها مرض الوليد مرض الموت، فطلب سليمان ابن عبد الملك ولي العهد إلى موسى أن يتريث في سيره إلى دمشق حتى يموت الوليد، طمعا بالحصول على الغنائم والتحف التي كان يحملها موسى، فأبى هذا ذلك عليه فحقد عليه سليمان بن عبد الملك حقدا عظيما ظهر أثره في حبسه وتعذيبه لما آلت إليه الخلافة بعد ذلك...

الحجاج والفتوحات

وليس من شك اليوم في أن الحجاج نفسه يجب أن يذهب بفخر هذه الفتوح، فهو الذي جهزها وأنفق عليها، وأمر بها، وسيرها وفاقا لرأيه، وإذا كان لنا أن ننتقد سياسة الحجاج القامعة، وإغراقه في العنف والقسوة والبطش، فإن علينا كمؤرخين منصفين أن نحمد له رأيه في هذه البعوث العظيمة، التي حملت رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند، فلولا شدته وحزمه ولولا جبروته وقوته لما كان بالإمكان الحصول على هذه الانتصارات العظيمة التي كلفت مالا طائلا والتي لم يكن يستطيع أحد أن يتحمل مسؤوليتها إلا الحجاج نفسه...

لقد كلفت حملة محمد بن القاسم التي انتهت بالاستيلاء على (المولتان) ستين مليون درهم، ولكنها حملت إلى بيت المال من الغنائم والأسلاب ١٢٠ مليونا من الدراهم.

والمستشرقون وإن كانوا لا ينكرون على الحجاج شدته وقسوته ومظالمه إلا أنهم لا ينكرون في الوقت نفسه أنه لولا هذه الشدة لما تمكن الحجاج من القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تهدد الإمبراطورية العربية، ولا تمكن بعد القضاء على هذه الفتن من توجيه البعوث إلى ما رواء الإمبراطورية من الأقطار والممالك...

obeikandl.com

ويذهب بعضهم إلى أن زحوف العرب المسلمين الجديدة في المشرق والمغرب، كانت على غرار الزحوف السابقة قوة وسرعة وتضحية، وبينما كان العرب المسلمون يغزون الشرق الأقصى ويقتحمون الحدود الصينية والهندية، وبينما كان طارق يمشي على رأس جنوده في أرض الأندلس الجديدة، كان مسلمة بن عبد الملك يحارب الإمبراطورية البيزنطية والأرمن، بحيث لم ير الإسلام في عهده - إذا استثنينا عهد عمر بن الخطاب - عهدا كثرت فيه الزحوف، وانتشرت رايات الإسلام في مختلف البلاد والأطراف.

الإدارة في عهد عبد الملك بن مروان

إدارة عبد الملك

جرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده، وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد، فزادت الأمور استقرارا، والأعمال تسلسلا، والعمال رغبة ورهبة، والرعايا أمنا ودعة، وكثيرا ما كان يعمد إلى الشدة لا تأخذه رأفة بخصوم دولته، قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفا ومودة وقال في الاعتذار عن عمله "ولكن الملك عقيم".

ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال "وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته، إلا باللين، فإن عثمان لان لهم حتى ركب، ولو كان غلظ عليهم جنابه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا".

وقال: إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس أن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أي باللين أغير على الناس في بيوتهم، وقطعت السبل وتظلم الناس، وكانت الفتن، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يعمله.

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وأمة، وقال عبد الملك يوما: أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر، نسأل الله أن يعين كلا على كل.

وسأله ابنه الوليد يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

ولما ولي عبد الملك العراقيين الحجاج بن يوسف الثقفي قال هذا:

- دلوني على رجل أوليه، فقيل له: أي الرجال تريد؟

قال: أريد دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة لا يحنق في الحق على مرة، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة. فقيل: "عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي" فأرسل إليه فاستعمله فقال له:

- "لست أقبلها إلا أن تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك."

فقال الحجاج: يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة

obeikandl.com

منـه. فقـال الشـعبي: فواللـه مـا رأيـت قـط صاحـب شرطـة مثلـه، كان لا يحبـس إلا في ديـن، وكان إذا أتى برجـل نقـب عـلى قـوم وضع منقبتـه في بطنـه حتـى تخـرج مـن ظهـره، وكان إذا أتى برجـل نبـاش حفـر لـه قـبرا ودفـن فيـه حيـا، وإذا أتى برجـل قاتـل بحديـدة وأظهـر سـلاحا قطـع يـده، فربمـا أقـام أربعـين يومـا لا يـؤتي إليـه بأحـد، فضـم إليـه الحجـاج شرطـة البـصرة مـع شرطـة الكوفـة.

وخطـب الحجـاج أهـل العـراق: "إني رأيـت آخـر هـذه الأمـة لا يصلـح إلا بمـا صلـح بـه أولهـا: لـين في غـير ضعـف، وشـدة في غـير عنـف، وإني أقسـم باللـه لآخـذن الـولي بالمـولى، والمقيـم بالظاعـن، والمطيـع بالعـاصي، حتـى يلقـي الرجـل أخـاه فيقـول: أنـج سـعد فقـد هلـك سـعيد، أو تسـتقيم لي قناتكـم".

ولمـا اتصـل بعبـد الملـك إسراف الحجـاج في القتـل وأنـه أعطـى أصحابـه الأمـوال كتب إليـه: أمـا بعـد فقـد بلغنـي سرفـك في الدمـاء وتبذيـرك الأمـوال، وهـذا مـا لا احتملـه لأحـد مـن النـاس، وقـد حكمـت عليـك في القتـل بالقـود، وفي الخطـأ بالديـة، وأن تـرد الأمـوال إلى أصحابهـا، فإنمـا المـال مـال اللـه ونحـن خزانـه، وقـد متعنـا بحـق أعطينـا باطـلا.

وكتـب الحجـاج إلى عبـد الملـك يسـتأذنه في أخـذ الفضـل مـن أمـوال السـواد فمنعـه مـن ذلـك وكتـب إليـه: "لا تكـن عـلى درهمـك المأخـوذ أحـصر منـك عـلى درهمـك المـتروك، وابـق لهـم لحومـا يعقـدون بهـا شـحوما".

الحجاج وكرمه

وكان الحجـاج يأخـذ بأيـدي العلـماء ممـن لا يتدخلـون في سياسـته ولا يشـاركونه في سـلطانه، ويضـع في كل يـوم ألـف خـوان في رمضـان وفي سـائر الإيـام خمسـمائة خـوان، عـلى كل خـوان عـشرة أنفـس وعـشرة ألـوان وسـمكة مشـوية طريـة وارزة بسـكر، وكان يحمـل في محفـة ويـدار بـه عـلى موائدهـا يتفقدهـا، فـإذا رأى أرزة لـيس عليهـا سـكر وعـسى الخبـاز ليجـئ بسـكرها فأبطـأ حتـى أكلـت الأرزة بـلا سـكر، أمـر بضربـه مـائي سـوط، فكانـوا بعـد ذلـك لا يمشـون إلا متأبطـي خرائـط السـكر. وكان يوسـف بـن عمـر والي العـراق في أيـام هشـام ابـن عبـد الملـك يضـع خمسـمائة خوان، فـكان طعـام الحجاج لأهـل الشـام خاصـة، وطعـام يوسـف بـن عمـر لمـن حـضره، فـكان عنـد النـاس أحمـد.

obeikandl.com

واشتهر عهد الحجاج بإصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة بإصلاحاته، ولم يكن مصلحا فحسب بل كان مصلحا وموجدا، ومن إيجاده وضع الحركات والأعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن. واتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والتسوقة والبهرجة، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطباعين وختم أيدي الطباعين.

وصية عبد الملك لابنه

وحرض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر قائلا له: انظر أي بني إلى أهل عملك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وأن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة، واعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وأياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون، وأنت سكان الغضب مطفأ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فيكونوا أصحابك وجلساءك، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا واستخلف الله عليك.

وهذا من أجمل أساليب الإدارة وسياسة الناس: لا تأخير في الفصل بينهم، ولا كذب في الوعود والمواعيد، واستشارة العارفين والعالمين، وجعلهم وحدهم بطانة وسمارا وجلساء، ولا إسراع في إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب.

الرشوة!

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له: "والله إن كنت قبلت هدية لا تنوي مكافأة المهدي لها أنك لئيم دنيء، وإن كنت قبلتها تستكفي رجلا لم

تكن تستكفيه لولاها أنك خائن، وإن كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وأن لا تخون له أمانة ولا تثلم له دينا فلقد رضيت ما بسط عليك لسان معامليك، وأطمع فيك سائر مجاوريك، وسلبك هيبة سلطانك".

ثم صرفه عن عمله.

وذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها الحقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معا.

وكان عبد الملك بن رفاعة أمير مصر يقول:

- إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطلق.

عبد الملك والجزية

وأدخل عبد الملك أمورا جديدة في الإدارة وهو أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر، وكان إذا قصد القضاء أقيم على رأسه بالسيوف.

وزاد عبد الملك الجزية، وأقل الجزية دينار وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة - وكانت دينارا على كل جمجمة ومدين قمحا، وقسطين زيتا وقسطين خلا، وضعها عليهم عياض بن غنم في الفتح - فأحصى عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضرب به عليهم الإمام من الحوائج كإصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم.

نقل الدواوين إلى العربية

وفي أيامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية، فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية كافة، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم، فأصبحت البلاد

عربيـة بأوضاعهـا سـائرة إلى التعـرب بسـكانها. وكان كاتـب الرسـائل سـليمان بـن سـعد الخشـني مـن أهـل الأردن أول مسـلم ولي الدواويـن كلهـا، وكان يتولاهـا القبـط والـروم والعجـم، وكان بالبـصرة والكوفـة ديوانـان لإعطـاء الجنـد والمقاتلـة والذريـة بكتـاب العربيـة، وديوانـان بالفارسـية، وبالشـام ديـوان بالعربيـة لمثـل ذلـك، وديـوان بالروميـة، فحـول ديـوان العـراق إلى العربيـة أبـو الوليـد صالـح بـن عبـد الرحمـن البـصري، قدمـه لذلـك الحجـاج فـكان كتـاب العراقيـين كلهـم غلمانـه وتلاميـذه، ونقـل ديـوان مـصر مـن القبطيـة إلى العربيـة عبـد اللـه بـن عبـد الملـك بـن مـروان أمـير مـصر في خلافـة الوليـد ابـن عبـد الملـك سـنة سـبع وثمانـين ونسـخها بالعربيـة، وجعـل عـلى الديـوان ابـن يربـوع الفـزاري مـن أهـل حمـص، وتأخـرت بعـض البـلاد في هـذا التغيـير مـن رسـم الإدارة، فـإن أول مـن كتـب بالعربيـة في ديـوان أصبهـان سـعد بـن إيـاس كاتـب عاصـم بـن يونـس عامـل أبي مسـلم صاحـب الدعـوة. وهـو أول مـن أخـذ النـاس بتعلـم القـرآن مـن أهـل أصبهـان، يقـال أنـه اسـتقرأ المسـلمين بهـا فلـم يجـد إلا ثمانـين رجـلا لم يكـن فيهـم مـن يحفـظ القـرآن إلا ثلاثـة، فلـم يحـل الحـول حتـى تعلـم النـاس القـرآن وحفظـوه.

وعبـد الملـك أول مـن كتـب عـلى الدينـار (قـل هـو اللـه أحـد) وذكـر النبـي في الطوامـير، وكانـت الدنانـير روميـة تدخـل مـن بـلاد الـروم، والدراهـم كسرويـة وحميريـة قليلـة، فهـو أول مـن ضرب الدراهـم المنقوشـة، وكان عـلى خاتمـه قبيصـة أبـو ذؤيـب والبريـد إليـه، يقـرأ الكتـب إذا وردت ثـم يدخلهـا عـلى عبـد الملـك فيخـبره بمـا فيهـا. ومـن أهـم أعـمال الدولـة وظيفـة صاحـب الشرطـة، ومـن أعمالـه أن يحجـب النـاس ويحافـظ عـلى الخليفـة، وكان الأمريـون لا يـأذن خلفاؤهـم بالدخـول عليهـم إلا بالترتيـب الـذي عينـوه. والـولاة ينزلـون في المعسـكر تحيـط بهـم الجنـد لتسـهل المحافظـة عليهـم فـلا يغتالهـم مغتـال. وقـد يتنقلـون في عمالاتهـم، فزيـاد يقيـم بالكوفـة سـتة أشـهر وفي البـصرة مثلهـا، وهـو أول مـن سـير بـين يديـه بالحـراب والعمـد، واتخـذ الحـراس خمسـمائة لا يفارقـون مكانـه. وكانـت تقـرأ عهـود القضـاء الذيـن نصبـوا حديثـا في المسـجد الجامـع أولا، وكان الجامـع في الإسـلام هـو المجمـع والمجلـس والمحكمـة وديـوان المـال والمدرسـة وكل مـا لـه علاقـة بالسـلطان والسـكان.

أما الـولاة فيديـرون ولا يأتيهـم في المعسـكرات، والمعسـكرات بعيـدة عـن دور الحكومـة القديمـة. و"ليـس مـن مدينـة عظيمـة إلا وبهـا دار ينزلهـا غـزاة تلـك البلـدة، ويرابطـون بهـا إذا وردوهـا، وتكـثر لديهـم الصلات وتـرد عليهـم الأمـوال والصدقـات العظيمـة" وإذا رحـل الجيـش واضطـر إلى النـزول في القـرى لشـدة الـبرد في الشـتاء يؤيـه أهلهـا ثلاثـة أيـام ويطعمونـه مـما يطعمـون.

جيش عبد الملك

وكان جيـش عبـد الملـك ومـن بعـده مـن العنـصر العـربي، ولمـا توسـع الأمويـون في فتوحهـم شـمالي أفريقيـة وفتحـوا الأندلـس جنـدوا أناسـا مـن البربـر ومزجوهـم بجنـد العـرب.

بعـث عبـد الملـك ابنـه مسـلمة لغـزو الـروم فقـدم النـاس مـن جميـع الآفـاق، وكان فيهـم مـن العـرب كنـدة وغسـان وتميـم وهمـدان وربيعـة وطـي ولخـم وجـذام وقيـس وجماعـة بنـي أميـة وقريـش ورؤسـاء أهـل الحجـاز والجزيـرة والشـام ومـصر. ثـم عـرض النـاس فانتخـب منهـم ثلاثـين ألفـا مـن أهـل البـأس والنجـدة، واتخـذ مـن الخيـل والفرسـان ثلاثـين ألفـا، وولي عـلى رؤسـاء كل طائفـة واحـدا منهـم. ويقـول البـلاذري أن مسـلمة بـن عبـد الملـك لمـا غـزا عموريـة حمـل معـه نسـاءه وحمـل نـاس ممـن معـه نسـاءهم. وكانـت بنـو أميـة تفعـل ذلـك إرادة الجـد في القتـال للغـيرة عـلى الحـرم.

وكانـت أمـور الحـرب بيـد الـولاة في الولايـات تقـوم بهـا القبائـل المهاجـرة إليهـا، أمـا جيـش الخليفـة الخـاص وهـو عبـارة عـن أجنـاد الشـام فـكان خاصـا بقتـال الـروم وحمايـة الخليفـة مـن فتنـة داخليـة، وبفضـل هـذه القـوى المخلصـة للأمويـين ظفـروا في الحـروب الأهليـة الكثـيرة التـي جـرت في عهدهـم.

وجـرى عبـد الملـك عـلى طريقـة عمـر ومعاويـة وزيـاد والحجـاج في أخـذ نفسـه بالتطلـع إلى اسـتعلام بواطـن أمـور الرعايـا، وكذلـك كان في التطلـع إلى أخبـار الـروم وغيرهـم ممـن كانـوا يـودون أبـدا أن يكيـدوا للمسـلمين. ثـار الـروم واسـتجاشـوا عـلى مـن بالشـام مـن المسـلمين في سـنة سـبعين فصالحهـم عبـد الملك عـلى أن يـؤدي إلى ملكهـم في كل جمعـة ألـف دينـار خوفـا منـه عـلى المسـلمين، وطمـع الـروم لافـتراق الكلمـة وقتـال الأمـة عـلى الملـك لمـا دعـا عمـرو

بـن سـعيد بـن العـاص الأشـدق إلى نفسـه بالخلافـة، واسـتولى على دمشـق لما سـار عبـد الملك بجيوشـه إلى العـراق، ليملكهـا مـن ابـن الزبـير. فعمـل عبـد الملـك في اتقـاء بـأس الـروم كـما عمـل معاويـة لمـا شـغل بقتـال عـلي، فصالـح الـروم على مـال يؤديـه اليهـم، وليس مـن الحزم في دولـة أن تحـارب حربـين داخليـة وخارجيـة في وقـت واحـد. وفعـل عبـد الملـك مثـل ذلـك في مـداراة الـروم فجـدد الهدنـة مـع ملكهـم عـلى أن يدفـع لهـم كل يـوم ألـف دينـار وفرسـا ومملـوكا ويقاسـم ملكهـم عـلى خـراج قـبرص وأرمينيـة عـلى شرط أن يخـرج اللبنانيـون مـن جبلهـم وكانـوا عصـوا عليه واتفقوا مـع الـروم، وآل اللبنانيون بعـد ذلك أن لا يتعرضـوا للعرب، فلقـب اللبنانيـون بالمـردة لأنهـم عصـوا أمـر ملـك الـروم. ومـا كان عبـد الملـك إلا محافظا على اعتدالـه ورباطـة جأشـه برويـة وتعقـل وصبر.

ويعد عبد الملك في العلماء كما يعد من أكبر الساسة. قال الجاحظ:

- كان عبـد الملـك بـن مـروان سـنان قريـش وسـيفها رأيـا وحزمـا، وعابدهـا قبـل أن يسـتخلف ورعـا وزهـدا. وهـو أول مـن لقـب مـن الخلفـاء بلقـب الموفـق لأمـر اللـه ثـم لقـب الوليـد المنتقـم لأمـر اللـه. ولم يشـتهر بهذين اللقبـين كبـيرا. وأوصى عبد الملـك أولاده أن يعطـف الكبـير منهـم عـلى الصغـير، وأن يعـرف الصغـير حـق الكبـير، وحذرهـم البغـي والتحاسـد، وأوصاهـم بأخيهـم مسـلمة وأن يصـدروا عـن رأيـه، وأن يكرمـوا الحجـاج فإنـه هـو الـذي وطـأ لهـم هـذا الأمـر. أوصى بـه ولطالمـا تـبرم مـن أعمالـه في حياتـه، والحجـاج وزيـاد وعتبـة بـن أبي سـفيان وخالـد القـسري الـذي تـولى العـراق زمنـا طويـلا، وتقيبـة بـن مسـلم أمـير خراسـان وفاتـح خـوارزم وسـمرقند وبخـارى الـذي دخـل إلى ملـك الصين وضرب عليـه الجزيـة وأمثالهـم، كانـوا في بنـي أميـة "قطـب الملـك الـذي عليـه مـدار السياسـة، ومعـادن التدبـير وينابيـع البلاغـة وجوامـع البيـان، هـم راضـوا الصعـاب حتـى لانـت مقاودهـا، وخزمـوا الأنـوف حتـى سـكنت شـواردها، ومارسـوا الأمـور، وجربـوا الدهـور، فاحتملـوا أعباءهـا، واسـتفتحوا مغالقهـا حتـى اسـتقرت قواعـد الملـك، وانتظمت قلائـد الحكـم، ونفـذت عزائـم السـلطان."

obeikandi.com

الوليد بن عبد الملك

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى أخوته وحث أولاده على اصطناع المعروف، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد الضياع فقلده رعاياه في ذلك، فكان الناس في أيامه يخوضون في رصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات لوفرة الثروة في أيدي الناس. وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك: أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد. وأجرى الوليد على القراء وقوام المساجد الأرزاق، وكذلك على العميان وأصحاب العاهات والمجدمين، وأخمد كل واحد منهم خادما، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة، وذلك للشاميين خاصة، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف، وفي مئات الألوف من الدنانير التي أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع، وما كان خزائنه من الأموال التي تكفي الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجنها هو ومن قبله من الخلفاء استعدادا للطوارئ.

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام في الإدارة وانتهى تعريب المملكة والإدارة، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونحي آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها. وظهرت أبهة الملك والسلطان، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر، تخليدا للذكرى وإشادة بالفخر، والوليد هو الذي جود القراطيس وجلل الخطوط وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف. ثم جرى الأمر بعدها على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الأطناب. وكان الوليد موفقا في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد. ومن خلق الوليد أنه كان سمحا يسره أن يرى لعماله شيئا من الرفاهية. كتب إليه الحجاج أنه

أصيب لمحمد ابن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمة الله، وأن تكون من خيانة فلا رحمة الله. فكتب إليه الوليد أن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له، وأمره أن يترحم عليه.

وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم، وكان القاضي بمصر مثلا يرزق ألف دينار في السنة. كان ابن حجيرة الأكبر في مصر (٦٩-٨٣) على القضاء والقصص وبيت المال، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار، وفي القصص مائتي دينار، ورزقه في بيت المال مائتي دينار، وعطاؤه مائتي دينار، وجائزته مائتي دينار. على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطي العامل سوى رزق واحد. ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا. وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم المقام به ويوضع الغزو عنهم. أما الحجاج فإنه كان يشتد في تجنيد الناس لأنه يقظ حذرا دائما فكان لا يدع قريشا ولا رجلا من بيوتات العرب إلا أخرجه "وضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان، فكانت المرأة تجئ إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول له: بأبي، جزعا عليه، فسمى ذلك الجيش، جيش بابي". وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويجند السليم. وخطب الحجاج لما جاء واليا على العراق، وقد بعث بشر بن مروان المهلب إلى الحرورية ومما قال: "وأياي وهذه الزرافات الجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم أنتم، والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل شغلا في جسده، ومن وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه، وانتهبت ماله وهدمت منزله". فشمر الناس بالخروج إلى المهلب. ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفة وعماله في الأقطار، تشبه الجيش الدائم تحت السلاح، يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية.

الحجاج يصف نفسه

وقد كتب الوليد إلى الحجاج يطلب منه أن يصف له سيرته فكتب إليه يقول:

"إني أيقظت رأيي وإنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما

أعطيته حظا من لطيف عنايتي ونظري، وصرفت السيف إلى المريب المسيء، والثواب إلى المحس البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب".

عن عصيان أهل العراق

وقد كان الحجاج في سياسته شديدا على أهل العراق لعدم ثقته بهم، وخوفه من عصيانهم، ويقول الجاحظ في علة عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام: طغن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأموال، وما زال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة بالشقاق على أولي الرئاسة".

سياسة الحجاج إزاء الموالي

ويقول (فان فلوتن): - إن الحجاج كان يرى أن تعود بلاد العراق – مهد المعارضة التي قام بها الموالي – معقلا للجيوش العربية كما كانت في عهد الخلفاء السابقين، ولذلك أصدر أمره إلى الموالي الذين كانوا يتطلعون إلى مساواتهم مساواة تامة بإخوانهم في الدين من العرب للعودة إلى أرضهم ودفع الجزية كما كانوا يدفعونها قبلا.

وقد ذكر لنا (فون كريمر) كيف استطاع الحجاج أن يرغم هؤلاء المتجددين في الإسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار، ثم تلك المقاومة العنيفة التي قاوموه بها، بانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن بن الأشعث.

وروى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التي كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه قبلا – بعد أن أخذ بالنقصان بسبب دخول هؤلاء في الإسلام – لأن المسلم لم يكن يدفع ضريبة فكانت الضريبة والحالة هذه تؤخذ من غيره وسواه..

وقد أجمع المؤرخون العرب على أن سياسة الحجاج هذه جعلت العراق في أسوأ حال، وقد قال اليعقوبي: "وكان الحجاج أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال، وانكسر الخراج في أيامه فلم يحمل كثير أمر، ولم يجمع الحجاج من كل العراق إلا خمسة

وعشرين ألف ألف درهم، وكان خراجه في عهد معاوية ١٢٠ مليونا من الدراهم...

وكذلك روى الطبري أن يزيد بن المهلب نظر لما ولاه سليمان بن عبد الملك ما ولاه من أمر العراق في أمر نفسه فقال:

- أن العراق قد أخر بها الحجاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه، صرت مثل الحجاج أدخل على الناس، وأعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها".

ولكننا أمام هذا لا نستطيع أن ننكر على الحجاج أمانته في عمله فلم يسمع عنه أنه اختزن المال في عهد ولايته، وقد مات في عهد الوليد بن عبد الملك، ولم يترك وراءه غير سلاحه وبعض مئات من العملة الفضية.

العلاقات بين الخليفة والحجاج

ليس في التاريخ شخص وثق به ملك من الملوك أو خليفة من الخلفاء كما وثق عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي بالحجاج بن يوسف عامله على العراق وبلاد فارس وخراسان وما راءهما من أمصار وبلاد..

وإذا استثنينا بعض الحوادث الصغيرة التي عاتب فيها عبد الملك عامله الحجاج وأفضى إليه بغضبه وإنكاره، فإن العلاقات بين الرجلين كانت ودية لا تشوبها شائبة، حتى بلغ من ثقة عبد الملك أن أورثه لولي عهده، وأوصاه بالاحتفاظ به وعدم التفريط في أمره..

والحجاج في الوقت نفسه كان مغرقا في إخلاصه لعبد الملك بن مروان ولأهل بيته، فكانت مصلحة عبد الملك فوق كل مصلحة عنده، وفوق كل اعتبار، وعبد الملك كان يعرف ذلك، ويعلم أن الحجاج قد وطد له ملكه، وهزم أعداءه،وقتل خصومه..

خذ مثلا قصة سعيد بن جبير وهو من الفقهاء أهل التقوى والصلاح، فقد خرج مع ابن الأشعث، وكان الحجاج يأنف أن يعرض له مع تقواه وصلاحه، فحدث يوما أن أرسله خالد عامله على مكة إليه، بعد أن قبض عليه في بعض شعاب مكة، فقال الحجاج: لعن الله خالدا أما كنت أعرف مكانه بل داره، والبيت الذي هو فيه بمكة، ثم أقبل عليه فقال:

- يا سعيد ألم أشركك في إمامتي، ألم أفعل؟ ألم استعملك؟

قال: بلى.

فقال الحجاج: فما أخرجك علي.

قال: إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة...

فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شيء .. فقال سعيد:

- إنما كانت بيعة لابن الأشعث في عنقي..

فغضب الحجاج ثم قال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك.. يا حرسي اضرب عنقه.

ويظهر لنا من هذه القصة أن الحجاج ما كان يقتل سعيد بن جبير لو لم يقدم هذا بيعة ابن الأشعث على بيعة عبد الملك.

الحجاج ومن شبب بأخته

وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن الحجاج كان يعفو حينا عن خصومه إذا كان الأمر لا يتعلق بعبد الملك وسلطانه، فمن ذلك أن محد بن عبد الله ابن نمير الثقفي هرب من وجه الحجاج وكان يشبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج وهو القائل فيها:

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت   به زينب في نسوة عطرات

يخبئن أطراف البنان من التقى   ويخرجن شطر الليل متعجرات

فلما أتى به إلى الحجاج عفا عنه...

الحجاج والأموال العامة

وانظر إلى شأنه بعد وفاة شقيقه محمد بن يوسف فقد كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول:

"أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمة الله عليه، وأن تكن من خيانة فلا رحمة الله عليه".

فكتب إليه الوليد: أما بعد فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد بن يوسف وإنما أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له فترحم عليه رحمة الله...

امتناع الحجاج عن الشراب

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه، وقد أكلا: هل لك في شراب فقال:

- يا أمير المؤمنين ليس بحرام ما أحللته، ولكني أمنع أهل عملي وأكره أن أخالف قول العبد الصالح... "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه" فأعفاه...

والواقع أن علاقات الحجاج مع عبد الملك كانت أقوى منها مع خليفته من بعده، ولعل سبب ذلك هذا الأمد الطويل الذي طال به اتصال الرجلين وتحملهما أعباء الملك زمنا طويلا...

الحجاج والفتاة

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بقتل أسلم بن عبد البكري بشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج فقال:

- أمير المؤمنين غائب وأنت حاضر، والله تعالى يقول:

"يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .... الآية" والذي بلغه عني باطل، فاكتب إلى أمير المؤمنين أني أعول أربعا وعشرين امرأة، وهن في الباب فأحضرهن، فهذه أمه، وهذه عمة وزوجة وابنة فكان في آخرهن جارية صغيرة فقال لها: من أنت؟

قالت: ابنته أصلح الله الأمير ثم أشارت تقول:

أحجاج لم تشهد مقام بناته ... وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج لم تقتل به أن قتلته ... ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج أما أن تجود بنعمة ... علينا وإما أن تقتلنا معا

فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت الدهر عليكن، ولا زدتكن تضعضعا.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بخبر الرجل والجارية.

فكتب إليه عبد الملك: إن كان الأمر كما ذكرت، فأحسن صلته وتفقد الجارية...

علاقات الحجاج مع الأمراء الأمويين

أما علاقات الحجاج مع بقية أمراء أمية فكانت متوترة كل التوتر، وسبب ذلك أن الحجاج كان في خدمته لعبد الملك وللوليد من بعده لا يفطن إلى غيرهما، ولا يولي وجهه سواهما، وكان الخلاف بينه وبين سليمان بن عبد الملك

كأشد ما يكون، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك فلا ينظر في كتبه، فكتب إليه "بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف، سلام على أهل الطاعة من عباد الله، أما بعد فإنك امرؤ مهتوك عنه حجاب الحق مولع بما عليك لا لك، منصرف عن منافعك تارك لحظك مستخف بحق الله و حق أوليائه، لا ما سلف إليك من خير يعطفك، ولا ما عليك لا لك تصرفه في مهمة من أمرك، لا تسكت عن قبيح ولا ترعوي عن إساءة ولا ترجو لله وقارا، حتى دعيت فاحشا سبابا، فقس شبرك بفترك وايم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ولأجعلنك شريدا في الجبال تلوذ بأطراف الشمال، ولأعلقن الرومية الحمراء بثدييها، علم الله ذلك مني فقدما غرتك العافية وانتحيت أعراض الرجال، فإنك قدرت فبذخت، وظفرت فتعديت فروديك حتى نظر كيف يكون مصيرك، إن كانت بي وربك مدة أتعلق بها وإن تك الأخرى فأرجو أن تؤول إلى مذلة ذليلة وخزية طويلة ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير والسلام."

جواب الحجاج

فكتب إليه الحجاج: "بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنك كتبت إلي تذكر أني امرؤ مهتوك عني حجاب الحق مولع بما علي لا لي، منصرف عن منافعي تارك لحظي، مستخف بحق الله وحق ولي الحق، وتذكر أنك ذو مصاولة، ولعمري أنك لصبي حديث السن، تعذر بقلة عقلك وحداثة سنك فأما كتابك إلي فلعمري لقد ضعف به عقلك واستخف به حلمك، فلله أبوك أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك، ورجاء الله دون رجائك، وأمت غيظك وأنمت عدوك، وسترت عنه تدبيرك، ولم تنبه فيلتمس من مكايدتك ما تلتمس من مكايدته، ولكنك لم تشف بالأمور علما، ولم ترزق من أمرك حزما، جمعت أمورا دلك فيها الشيطان على أسوأ أمرك فكان الجفاء من خليقتك، والحمق من طبيعتك وأقبل الشيطان بك وأدبر، وحدثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يعيبك، فتزحلقت صخرتك

لقوله، واتسعت جوانبها لكذبه، وأما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها فأرجو أن يكرمها الله بهوانك وأن لا يوفق ذلك لك، إن كان ذلك من رأيك، مع أني أعرف أنك كتبت إلي والشيطان بين كتفيك، فشر محل علي شر كاتب، راض بالخسف، فأحرى بالحمق أن لا يدلك على هدى ولا يردك إلا إلى ردي، ومال بك الأمل وتحلب فوك للخلافة، فأنت شامخ البصر طامح النظر تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها، أنها نعمة

الله أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر، مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبو وأخوك فأكون لك مثلي لهما، وأن نفخ الشيطان في منخرك فهو أمرا راد الله نزعه عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك، ولعمري أنها النصيحة، فإن تقبلها فمثلها قبل، وأن تردها على اقتطعتها دونك، وأنا الحجاج".

وفي جواب الحجاج تهديد ووعيد، يدلك على جبروته وغروره، خصوصا وسليمان بن عبد الملك ولي العهد، فإن أقبلت إليه الخلافة والحجاج حي، فمصير الحجاج سيكون أسوأ مصير..

ولكن الله أراد غير ذلك فقد توفى الحجاج في عهد الوليد، فلما ولي سليمان الخلافة تتبع أهل الحجاج وأنصاره وأصدقاءه فمزقهم تمزيقا وقتلهم قتلا ذريعا انتقاما من إهانة الحجاج له، عدم مبالاته بأمره..

خوف الحجاج من موت الوليد

وكان الحجاج في العراق يعلم بالخطر الذي يتهدده فيما إذا مات الوليد ابن عبد الملك وهو حي يرزق في العراق، وقد أدرك بثاقب نظره أن سليمان ابن عبد الملك سيحاسبه حسابا عسيرا وسينتقم منه انتقاما عظيما، وكان للحجاج عيون في دمشق وفي قصر الخليفة، فمرض الوليد يوما مرضا شديدا أغمى عليه فيه، فظن أهله أنه فارق الحياة، فأرسل عيون الحجاج إليه بالخبر، فاضطرب اضطرابا شديدا، وأسقط في يده، وأحس بالخوف يغمر قلبه، فأطلق بصره إلى السماء، وقال: نحن إلى الله وإلى الله نعود...

وكان الحجاج كثيرا ما يطلب من الله أن يقبضه إليه قبل الوليد، مخافة أن يهان في آخرته، ويذل في أواخر أيامه، ومن حسن حظ الحجاج أن الوليد عاد إلى وعيه بعد إغمائه فأرسل الخبر إلى الحجاج، ففرح فرحا عظيما، وسجد إلى الله شاكرا حامدا، واعتق كثيرا من عبيده، وأرسل للوليد كثيرا من الهدايا، وبعث إليه بقوارير من أنبج الهند.

الحجاج وعائلته

ولقد بلغ من حظ الحجاج وعظيم شأنه أنه استطاع تزويج أنسبائه من شباب ونساء بإشراف القوم في عهده والأمراء في زمنه، كما استطاع في الوقت نفسه أن يفضي إليهم بمختلف المراكز العالية والمناصب الرفيعة.

فشقيقه محمد بن يوسف كان والي اليمن وكان شديدا مثله مغرقا في القسوة والبطش وقد بلغ من شأنه وخطره إن زاد الخراج في عهده، فجمع من ذلك مالا كثيرا، يحدثنا المؤرخون أن الحجاج وجد عنده بعد موته مالا يقل عن مائة وخمسين ألفا من الدنانير كتب بأمرها إلى الوليد كتابا أشرنا إليه في فصل سابق، فأجابه الوليد: أنه يعلم ذلك، وأنه أنما جمع ماله هذا من تجارته، فليتركه والحالة هذه لأهله ولا يعرض له... ومن المؤكد لدينا أن الوليد سكت عن المال إكراما للحجاج وخدماته، وإكراما للميت وإخلاصه، ولو اتبع الوليد الحق والعدل لحجز مال (المرحوم) وصرفه إلى بيت المال، فليس يحق لعامل من العمال يأخذ راتبا من الخزانة العامة أن ينصرف لتجارة غير تجارة الوظيفة التي كلف ا لقيام بأمرها، والعمل لخدمتها...

والقصة نفسها إلى ذلك تدلنا على مبلغ إخلاص الحجاج في عمله الإداري وتعففه، وهو ما يؤديه التاريخ كل التأييد.

وكان لمحمد بن يوسف والي اليمن هذا ثلاثة أبناء وفتاة، زوجها الحجاج ليزيد بن عبد الملك، الذي أصبح خليفة سنة ١٠١ للهجرة...

فانظر إلى الحجاج يفشو أمره ويخطر شأنه حتى يوفق إلى تزويج بنات أخيه بالخلفاء أنفسهم...

وكذلك نرى أن الحجاج زوج ابنته الوحيدة بمروان ابن الوليد بن عبد الملك.

وكذلك نرى كيف راح الحجاج يسمى أبناءه الأربعة بأسماء محببة لبني أمية، فأسمى ابنه الأول محمد، والثاني إبان، والثالث عبد الملك، والرابع الوليد...

كما نرى أن عبد الملك نفسه أيضا أسمى أحد أبنائه محمد، وأسمى ابنا آخر الحجاج، كأنما كان يحاول من ذلك التقرب من عامله، والتلطف في بره وإرضائه...

وقد أرضى ذلك الحجاج وأقر عينه، حتى بلغ من أمره أن أهدى الحجاج بن عبد الملك منزلا في دمشق...

نساء الحجاج

ويحدثنا المؤرخون أن الحجاج تزوج غير امرأة واحدة، طلق بعضهن واحتفظ بالبعض الآخر، ولكنه في الغالب لم يكن موفقا مع زوجاته، فقد كان كثير القلق مضطرب الخاطر، شديد التشاؤم أبدا، ومثل هذه الحالة لا تساعد على الراحة الزوجية المنشودة، فقد تزوج الحجاج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ثم طلقها بأمر من عبد الملك، وكذلك طلق بنت عبد الله بن أسيد، ويذكر لنا صاحب العقد الفريد بين زوجاته (الفارية) وقبل أن يعين الحجاج لولاية العراق تزوج ابنتي النعمان بن بشير، ثم طلقهما أيضا، ولكن أشهر زوجات الحجاج، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، ثم طلقهما أيضا وفاقا لما يرويه الكامل في المبرد لمنام استشعر فيه شرا، ثم ظهر تفسير هذا المنام بموت ابنه وأخيه في وقت واحد...

في أيام الحجاج

وكان الناس في أيام الحجاج إذا تلاقوا في المجالس والمجامع والمساجد والأسواق، تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع، وانتهى به الإمعان في الظلم إلى أن يأمر الناس بحلق لحاهم، ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط، فيموت جوعا وألما، وهو لا يستطيع سبيلا إلى الحراك...

وكان قوي البنية، متجسما إلى السمنة، ولا يزال العرق متصببا على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة قد أطاحها بعمامة خضراء، وكانت له مهابة تقصم

ظهـر الوافـد عليـه، حتـى لم يـر مـن النـاس مـن انبسـط معـه في الـكلام أو تجـرأ أن يرفـع إليـه بـصره إلا الأقـل منهـم.

وكان شـديد التهـول في خطبـه، وإذا صعـد المنـبر تلفـح بمطرفـه ثـم تكلـم رويـدا فـلا يـكاد يسـمع، حتـى يتزايـد في الـكلام فيخـرج يـده مـن مطرفـه ثـم يزجـر الزجـرة فيقـرع بهـا أقـصى مـن في المسـجد.

وكان يجد لذة في سفك الدماء وارتكاب مختلف ألوان العسف والقمع.

وقـال الذهبـي "أنـه كان شـجاعا مهيبـا جبـارا عنيـدا، ومخازيـه كثـيرة، إلا أنـه كان عالمـا فصيحـا مفوهـا مجـودا للقرآن.

وكان الحجـاج نهـما مبـذرا مسرفـا، خصوصـا في الحفـلات والمـآدب، وكان كثـير الخـير في هـذه الناحيـة، حتـى ذهـب عبـد الملـك إلى انتقـاده والتشـديد عليـه، وكان ينصـب للنـاس ألـف خـوان في رمضـان، وخمسـمائة في غـيره مـن الشـهور.

شدة الحجاج وعبوسه

وذكـر المدائنـي أن الحجـاج لم يكـن يظهـر لندمائـه منـه بشاشـة ولا سـماحة في الخلـق إلا في يـوم دخلـت عليـه ليـلى الأرخيليـة فقـال لهـا:

- بلغنـي أنـك مـررت بقـبر توبـة بـن الحمـير، وعدلـت عنـه فواللـه مـا وفيـت لـه ولـو كان هـو بمكانـك وأنـت بمكانـه مـا عـدل عنـك.

قال: أصلح الله الأمير لي عذر.

قال: وما هو؟

قالت: سمعته وهو يقول:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   علي وفوقي جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   إليها صدى من جانب القبر صائح

وكان معـي نسـوة قـد سـمعن قولـه فكرهـت أن أكذبـه، فاستحسـن الحجـاج قولهـا وقـضى حوائجهـا، وانبسـط في محادثتهـا، فلـم يـر منـه بشاشـة وأريحـة داخلـة مثـل ذلـك اليـوم.

ومـرض الحجـاج يومـا – وذلـك قبـل مرضـه الـذي تـوفي فيـه – فأرجـف أهـل الكوفـة، فلـما تماثـل مـن علتـه صعـد المنـبر، وهـو يتثنـى عـلى أعـواده فقـال:

"إن أهـل الشـقاق والنفـاق نفـخ الشـيطان في مناخرهـم، فقالـوا مـات الحجـاج ومـات الحجـاج، واللـه مـا أرجـو الخـير كلـه إلا بعـد المـوت، ومـا رضي اللـه الخلـود لأحـد مـن خلقـه في الدنيـا إلا لأهونهـم عليـه إبليـس".

قتلى الحجاج وسجنه

ولقـد أحـصى مـن قتـل الحجـاج صـبرا سـوى مـن قتـل في عسـاكره وحروبـه فوجـد مائـة وعشريـن ألفـا ومـات في حبسـه خمسـون ألـف رجـل وثلاثـون ألـف امـرأة، منهـن سـتة عـشر ألفـا مجـردة، وكان يحبـس الرجـال والنسـاء في موضـع واحـد، ولم يكـن للحبـس سـتر يسـتر النـاس مـن الشـمس في الصيـف، ولا مـن المطـر في الشـتاء، وكان لـه غـير ذلـك مـن العـذاب.

وذكر أنه ركب يوما يريد الجمعة فسمع ضجة فقال: ما هذا:

فقيل له: المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء...

فالتفت إلى ناحيتهم وقال: اخسوءا فيها ولا تكلمون..

فيقال أنه مات بعد تلك الركبة.

ومـا ذكرنـاه مـن عـدد المسـجونين في سـجن الحجـاج يـكاد يجمـع عليـه أكـثر المؤرخـين، وإن كان بعضهـم يذهـب إلى زيـادة العـدد، ويقـول آخـرون أنـه هلـك في سـجن الحجـاج مـا لا يقـل عـن خمسـين ألفـا مـن الرجـال والنسـاء...

ولمـا اشـتد الحـال بأهـل العـراق أخـذوا يهاجـرون إلى الحجـاز، وكان عـلى الحجـاز الرجـل الصالـح عمـر بـن عبـد العزيـز، فـكان هـذا لا يعـرض لهـم بخـير ولا شر فأغضـب ذلـك الحجـاج، وكتـب إلى الوليـد يقـول لـه: إن عاملـه عـلى مكـة لا يـرى كبـير أمـر في الإحسـان إلى المعارضـين والثـوار مـن الذيـن يهربـون مـن وجهـه، ولمـا كان الوليـد مثلـه شـدة ونقمـة فقـد عـزل عمـر بـن عبـد العزيـز عـن مكـة وولى عليهـا خالـد بـن عبـد اللـه القـسري الـذي كان فاسـقا شـديدا جبـار..

والواقع أن الحكم على الحجاج ليس أمرا سهلا، فالمؤرخون الأولون قد نفضوا أخباره الحسنة وأخباره السيئة معا، فلا يصح والحالة هذه أن يتهموا بالمجاملة أو العداوة له، وإذا فأخباره التي بين أيدينا صادقة بكل معنى الكلمة وبإجماع المؤرخين عليها...

الحكم على الحجاج

لقد كان يحسن الحجاج لنفسه وللناس من بعده، لو أنه عمد بعد القضاء على الثورات الخارجية والداخلية في العراق إلى الأخذ بسياسة الحلم، والعفو والتقرب من الناس، ولكنه كان رجلا جبارا لا يرى في الحلم إلا ضعفا وتراجعا، فمضى في سياسة العسف مضيا قضى على أعماله الحسنة، وأساء إلى إدارته القوية، وجعل الناس لا يذكرون هذه إلا بشيء كثير من الاشمئزاز والنقد...

obeikandl.com

الحجاج بن يوسف الثقفي في أواخر أيامه

موته:

روى قتيبة بن مسلم قال: خطبنا الحجاج فذكر القبر فما زال يقول: "إنه بيت الوحدة، إنه بيت الغربة، وبيت كذا وكذا حتى بكى وأبكى".

وقيل أنه ذكر عند عمر بن عبد العزيز ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك فقال: الحجاج بالعراق والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس..

فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج، وقرة بن شريك في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعزل عثمان وخالد واستجار الله لعمر بن عبد العزيز...

وكانت وفاة الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين وقيل كانت وفاته لخمس بقين من شهر رمضان، وله من العمر أربع وخمسون سنة، وقيل ثلاث وخمسون، وكانت ولايته على العراق عشرين سنة، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج، واستخلف على حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن مسلم فأقرهما الوليد بعد وفاته، ولم يغير أحدا من عمال الحجاج....

وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم يوما يقول: لقد نظرت في عمري فإذا أنا في الثالثة والخمسين، والمرء الذي يمشي خمسين سنة لابد وأن يصل إلى المورد."

وقد كتب الحجاج كتابه هذا سنة ٩٤ للهجرة على الأرجح وقبل وفاته بقليل..

وقد اختلف المؤرخون في مرض الحجاج، وإذا نظرا إلى أنه كان شرها كثير الأكل، فلا يبعد أن يكون سبب موته، ما أصاب معتده من تعب وعناء، وما صارت إليه من عجز عن هضم الأطعمة الكثيرة التي كان من عادة الحجاج أن يأكلها...

وكان للحجاج طبيب كان في خدمة كسرى قبل الفتوح الإسلامية، وقد ذكر لنا ابن أصيبعة في كتابه "الحكماء" شيئا عنه فقال أن اسمه (تيودو كوس" وأنه عاش ٩٠ سنة، وكان كثيرا ما ينصح الحجاج بأن لا يأكل إلا اللحم الذي ذبح حالا، وأن لا يأكل إلا الفاكهة المستوية، ولا يستعمل الأدوية إلا في حالة المريض..

ويقول بعض المؤرخين أن الحجاج أصيب بالسرطان في آخر أيامه، وأنه كان

يتعذب عذابا شديدا، وأنه ظل على عذابه هذا خمسة عشر يوما...

ولما فشا خبر موته بين الناس ظهر البشر على وجوه العراقيين وأخذوا يهنئون بعضهم بعضا، وسجد بعضهم للأرض شكرا لله على قبضه الحجاج إليه، كما ذهب آخرون يقسمون الإيمان المغلظة بأن الحجاج ذهب إلى النار، وأنه الآن حطبة في جهنم...

وقال ابن خلكان عن مرضه: "إن الله سلط عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل تحت مملوءة نارا، وتدني منه حتى تحرق جلده، وهو لا يحس بها...

ومات بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره، وأجري عليه الماء.

وروى ابن خلكان: أنه كان ينشد في مرض موته هذين البيتين:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا   إيمانهم أنني من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ويحهم   ما ظنهم بعظيم العفو غفار

وكان الحجاج يخبر عن نفسه: أن أكثر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمول لا يقدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه.

كلمة الوليد فيه

وكان الوليد بن عبد الملك يقول: كان عبد الملك يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي، وأنا أقول: إنه جلدة وجهي كله.

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موت الحجاج خر ساجدا وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الآخرة.

دفن الحجاج حيا

وهناك من يقول، أن الحجاج دفن حيا، وأنه أغمي عليه إغماء شديدا، فظن أهله أنه مات حقا، والواقع أن الأمر غير ذلك، ويؤكدون هذه الرواية بما سمعه الناس من صياح في قبره...

فقد روى أبو بكر بن عياش قال: سمع صياح الحجاج في قبره، فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه فأخبروه، فركب في أهل الشام فوقف على قبره فسمع صياحا. فقال: يرحمك الله يا أبا محمد، فما تدع القراءة حتى ميتا..

ويذكـر غيرهـم أنـه كاتبـه خـشى عـودة الحجـاج إلى الحيـاة، فذهـب إلى مغالطـة الجماعـة بـأن الحجـاج إنمـا يقـرأ القـرآن في موتـه كـما كان يقـرأه في حياتـه.

على دين أبي يوسف

ويوري صاحب العقد عن الحجاج هذه القصة الغريبة:

"لما جلس الحجاج لمحاكمة أسرى ثورة ابن الأشعث، قدم إليه رجل فقال له:

- على دين من أنت؟

فقال: على دين إبراهيم حنيفا، وما كان المشركين..

فقال: أضربوا عنقه.

ثم قدم آخر فقال له: على دين من أنت؟

على دين أبيك الشيخ يوسف...

فقال: أما والله لقد كان صواما قواما، خل عنه يا غلام.

فلما خلى عنه انصرف إليه الرجل وقال:

- يـا حجـاج سـألت صاحبـي: عـلى ديـن مـن أنـت؟ فقـال: عـلى ديـن إبراهيـم حنيفا ومـا كان مـن المشركـين، فأمـرت بـه فقتـل، وسـألتني عـلى ديـن مـن أنـت؟ فقلـت: عـلى ديـن أبيـك الشـيخ يوسـف، فقتـل: أمـا والله لقـد كان صوامـا قوامـا، فأمرت بتخلية سـبيلي، واللـه لـو لم يكـن لأبيـك مـن السـيئات إلا أنـه ولـد مثلـك لكفـاه.

فأمر به الحجاج فقتل.

فتأمل...

تكفير الأئمة للحجاج

وأئمـة المسـلمين يـكادون يجمعـون عـلى تفكـير الحجـاج لبطشـه وقتلـه النـاس بغـير حـق، فقـد قـال أحدهـم للشـعبي:

- يعزم الناس أن الحجاج مؤمن...

فقال: مؤمن بالجبت والطاغوت، كافر بالله...

واختلـف بعضهـم في الحجـاج فذهبـوا إلى مجاهـد، وكان مـن اتقـى النـاس وأصلحهـم في عـصره فقالـوا:

- أنا قد اختلفنا في الحجاج.

فقال: اجئتم تسألونني عن الشيخ الكافر؟

وروى محمد بن كثير عن الإمام الأوزاعي قال:

- سمعت القاسم بن حمد يقول: كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام عروة عروة...

خامس الأربعة

قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك في العراق؟

قال: خير منزل لو أدركت بها أربعة لتقربت إلى اله بدمائهم...

قيل: ومن هم؟

قال: مقاتل بن مسلم ولي سجستان، فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم فقال:

- لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبيد الله بن ظبيان قام فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد:

- أكثر الله فينا من أمثالك.

فقال: لقد سألتم الله شططا...

وسعيد بن زرارة كان ذات يوم جالسا على الطريق فمرت به امرأة فقالت:

- يا عبد الله أين الطريق إلى مكان كذا؟

فغضب وقال: المثلي يقال له يا عبد الله...

وأبو سماك الحنفي أضل ناقته فقال:

- لئن لم يردها علي لا صليت أبدا.

فلما وجدها قال:

- علم أن يميني كانت برا.

قال ناقل الحديث: ونسى الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة، بل هو أفسقهم وأطغاهم وأعظمهم إلحادا وأكفرهم، في كتابه إلى عبد الملك بن مروان:

obeikandl.com

"إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم".

رثاء الفرزدق للحجاج

ولما مات الحجاج رثاه الفرزدق الشاعر ليرضي بذلك الوليد بن عبد الملك ولما مات الوليد بن عبد الملك، واستخلف سليمان بن عبد الملك أمر يزيد بن المهلب عامله على العراق أن يقتل آل أبي عقيل – عائلة الحجاج – فقتلهم هجا الفرزدق الحجاج وأهله، فقال له أحدهم:

- ما أدري بأي قوليك نأخذ، أبمدحك الحجاج في حياته، أم هجوك له بعد موته.

فقال الشاعر: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه، فإذا تخلى عنه تخلينا عنه...

openikandil.com